من البحر الأدرياتيكي إلى سهوب البحر الأسود الشمالية: حملتان عسكريتان بعيدتان

بينما كان السلطان سليمان منشغلًا بغزو العراقيْن، كانت الأوضاع في البحر الأبيض المتوسط ملتهبة للغاية. فالسلطان يرغب في تغيير موازين القوى لصالحه في البحر المتوسط مستعينًا بـ"بَرْبَرُوسْ خَيْر الدين بَاشَا" الذي أسند إليه مهمة قيادة الأسطول. وعندما عاد بَرْبَرُوسْ من حلب إلى إسطنبول، انشغل ببناء السفن في الترسانة، وعمد إلى نقل خبرته في مجال بناء السفن لتحديث قدرات الأسطول العثماني وفق ظروف عصره، إذ نجح في بناء ٦١ سفينة بطرازات متنوعة. ولقد أصبح الأسطول العثماني يتمتع بالعديد من الطرازات المختلفة من السفن الحربية التي تحمل توقيع بَرْبَرُوسْ مثل السفن والقوادس متعددة الطرازات. وخرج إلى البحر وتحت قيادته أسطول مكون من ٨٤ سفينة، ٦١ سفينة منها بَنتها الترسانة العثمانية، و١٨ سفينة كان يملكها شخصيًا، و٥ سفن أخرى استولى عليها بينما كان يعمل كقرصان في البحر.

وتحرك الأسطول العثماني من إسطنبول في صيف عام ١٥٣٤م، وتوجّه صوب السواحل الإيطالية، ووصل إلى مدينة "ريدجو (*Reggio*)" المطلة على مضيق "ميسينا"[٦١]، وقام بمهاجمتها وتدميرها. ثم هاجم مدينة "سان لوكا (*Santa Lucca*)" التابعة لـ"ريدجو" ودمرها هي الأخرى. وبعدها انتقل إلى مهاجمة مدينة "سيترارو (*Sitraro*)"، وأحرق ١٨ سفينة مسيحية كانت راسية في ميناء تلك المدينة. أعقب ذلك وصوله إلى منطقة "فوندي (*Fondi*)" التابعة لمدينة "نابولي (*Napoli*)". وبحسب ما نقله الكتاب الأوروبيون، فقد تقدّم تدمير

---

(٦١) مضيق ميسينا: عبارة عن ذراع بحري يصل بين البحر التيراني بالبحر الأيوني في البحر الأبيض المتوسط، ويفصل بين جزيرة صقلية وشبه الجزيرة الإيطالية عند إقليم كالابريا، أي أنه يفصلها عن القارة الأوروبية. (المترجم)

منطقة "فوندي" على أسر "جوليا جونزاجا (*Giulia Gonzaga*)"(٦٢) وتقديمها إلى السلطان سليمان. ولقد حازت هذه الواقعة على مكانة كبيرة في عقول الأوروبيين ومخيلتهم. وبالرغم من ذلك، فإن تطور الواقعة ونقلها يعتبر موضع شك، إذ لا تعدو كونها رواية خيالية رائعة من الطراز الأول.

تحرك الأسطول العثماني بقيادة بَرْبَرُوسْ من السواحل الإيطالية تجاه سواحل تونس. وفي الواقع، فإن الهجمات التي قام بها الأسطول العثماني على المدن الإيطالية كانت تهدف لاستدراج "أندريا دوريا" ومنازلته.

لكن بَرْبَرُوسْ آثر التوجّه صوب تونس عندما لم يجد رد فعل من "دوريا"، حتى وصل في نهاية إلى سواحل تونس.

وكانت تونس في ذلك التاريخ تخضع لسيطرة سلالة "بني حفص"(٦٣) التي كانت تحكمها منذ زمن طويل. وكان من يحكمها في ذلك التوقيت هو "مَوْلَايْ حسن" الذي اعتلى العرش بصفته الوريث الثاني والعشرين من هذه الأسرة الحاكمة. وقد أقدم هذا الرجل على قتل ٤٢ من إخوته البالغ عددهم ٤٤ أخًا. ولم يكن يحظى بشعبية بسبب شخصيته الظالمة. وكان بَرْبَرُوسْ يريد الاستيلاء على تونس حيث استغل لذلك "رشيد" شقيق "مَوْلَايْ حسن" -أحد الرجلين اللذين كانا لا يزالان على قيد الحياة- وكان قد لجأ إليه من قبلُ هربًا من ظلم أخيه فاصطحبه بَرْبَرُوسْ إلى إسطنبول. فتوجّه نحو مدينة "حلق الوادي"(٦٤) وأنزل جنوده على سواحلها، وسار حتى مسافة ٩ أميال داخل الأراضي التونسية. وقد استطاع الجانب العثماني استمالة اثنين من العاملين داخل قلعة تونس بشكل سرّي، فسلّم هذان الأخيران مفاتيح القلعة إلى قيادة

(٦٢) جوليا جونزاجا: سيدة نبيلة إيطالية عاشت في القرن السادس عشر، أُسرت خلال الغزو العثماني لإيطاليا تمهيدًا لتقديمها للسلطان سليمان كجارية. (المترجم)

(٦٣) بنو حفص أو الحفصيون: سلالة أمازيغية حكمت في تونس، شرق الجزائر وطرابلس ما بين ١٢٢٩-١٥٧٤م. (المترجم)

(٦٤) حلق الوادي: مدينة وميناء تونسي يقع شمال البلاد قرب مدينة تونس العاصمة. (المترجم)

الأسطول العثماني، مما ساعد قوة تركية قوامها ٥ آلاف جندي على الدخول إلى المدينة على الفور وبسط السيطرة عليها.

وفرّ "مَوْلَايْ حسن" هاربًا من المدينة، ورحب الشعب التونسي بفتح العثمانيين للمدينة واستقبلوهم بفرحة كبيرة لظنّهم أن العثمانيين سينصّبون "رشيد" شقيق "مَوْلَايْ حسن" على العرش. إلا أن بَرْبَرُوسْ لم يصطحب "رشيد" في هذه الغزوة، ذلك لأنه استولى على تونس لصالح الإمبراطورية العثمانية. فلم يستسغ الشعب التونسي هذا التصرّف، وشرعوا في مقاومة القوات العثمانية التي دخلت المدينة. وحاول "مَوْلَايْ حسن" الاستفادة من هذه الأوضاع غير المستقرة، وجمع عددًا من الجنود، وتمكّن من العودة إلى تونس لفترة من الوقت. لكن مَدافع الجيش العثماني انهالت عليه بقذائفها حتى اضطر للهروب بشقّ الأنفس.

أدرك بَرْبَرُوسْ أن حاكم تونس السابق "مَوْلَايْ حسن" سيواصل هجماته على تونس محاولًا استعادتها من أيدي العثمانيين، فعلم يقينًا أنه لن يستطيع بسط نفوذه بشكل كامل على المدينة من دون التخلّص من هذا الخطر الداهم. فتعقّب بَرْبَرُوسْ حاكم تونس السابق على رأس قوة مكونة من ١٠ آلاف جندي، وهاجمه بمدينة "القيروان"(٦٥)، وأُجبر "مَوْلَايْ حسن" مرةً أخرى على الهرب أمام قوة العثمانيين العسكرية.

ويُروى أن بَرْبَرُوسْ أثناء رحلته إلى "القيروان"؛ أمر جنوده أن يربطوا أشرعة السفن بعربات المدافع، مما ساعد السفن على التحرك بسرعة أكبر بفضل الرياح. وبهذه الطريقة استطاع بَرْبَرُوسْ إخضاع تونس للسيطرة العثمانية عام ١٥٣٤م. إلا أن استيلاء العثمانيين على تونس كان يعتبر خطوة مهمة للغاية في طريقهم لبسط نفوذهم على البحر المتوسط. وكانت هذه النقطة التحولية

---

(٦٥) القيروان: مدينة تونسية تبعد حوالي ١٦٠ كيلومترًا عن تونس العاصمة. ويعود سبب أهميتها إلى دورها الإستراتيجي في الفتح الإسلامي، فمنها انطلقت حملات الفتح نحو الجزائر والمغرب وإسبانيا وأفريقيا بالإضافة إلى أن بها قبور عدد من صحابة سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام. (المترجم)

من المسائل الأساسية التي طالما أرّقت إمبراطور ألمانيا "كَارْل الخامس". فسيطرة العثمانيين على البحر المتوسط تعني إصابة موانئ البلدان الأوروبية المطلة عليه بالركود، والإضرار بتجارتها في مياهه. كما انزعجت البلدان الأوروبية الصغيرة المطلة على سواحل البحر المتوسط من هذه التطورات بشكل خاص، ذلك لأنها كانت تتمتع بمكانة كبيرة في المنطقة بصفتها مراكز تجارية مهمة، فلجأ حكامها إلى الإمبراطور "كَارْل"، وشجّعوه على التصدّي للعثمانيين. وقد انضم فرسان "سانت جيان (*St. Jean*)" على وجه الخصوص إلى تلك الحركة، بعد أن اضطروا للهجرة من جزيرة "رودس" إلى جزيرة "مالطا". وعلم "مَوْلَايْ حسن" بتواجد السلطان سليمان في رحلته إلى العراقَيْن من شقيقه الآخر "عبد المؤمن" المتواجد في مدينة "طرابلس" الغرب. ولهذا السبب، طلب "مَوْلَايْ حسن" المساعدة من فرسان "مالطا" الذين كانت تمتد حدود نفوذهم حتى سواحل "طرابلس" الغرب، كما لجأ إلى "كَارْل الخامس" طلبًا للعون في مواجهة العثمانيين. وقد قرّر الأخير التحرك بنفسه صوب تونس لتحريرها من أيدي العثمانيين.

استقلّ الإمبراطور السفينة متوجهًا إلى تونس من ميناء "برشلونة (*Barselona*)" بتاريخ ٢٩ أيار/مايو ١٥٣٥م، يرافقه عدد من نبلاء إسبانيا. وتوجّه الأسطول الإسباني المكون من قرابة ٥٠٠ قطعة بحرية بقيادة "أندريا دوريا" إلى السواحل التونسية. وكان هذه السفن تحمل قوة عسكرية قوامها ٢٤ ألف جندي من ألمانيا، ومالطا، وإسبانيا، والبرتغال، و"جنوة (*Ceneviz*)"، و"نابولي (*Napoli*)". ووصل هذا الأسطول العملاق يوم ١٦ حزيران/يونيو إلى سواحل مدينة "حلق الوادي" التونسية التي تطل عليها قلعتها. ونجح الجنود الإسبان الذين كانوا يشكلون السواد الأعظم من هذا الجيش، في استقلال القوارب الصغيرة، والوصول إلى الشاطئ بدعم من نيران البنادق. ثم تبعهم الجنود الإيطاليون والألمان بعد ذلك. وكان بَرْبَرُوسْ قد دعّم قلعة المدينة بقوة قوامها ٦٠٠ جندي، كما كانت القلعة محاطة بالعديد من الحصون المنيعة حول جهاتها الأربعة. ولقد دافع بَرْبَرُوسْ عن مدينة "حلق الوادي" لشهر كامل،

على اعتبار أنها تمثل بوابة تونس المطلة على البحر. لكن الفروق بين الطرفين كانت ظاهرة للعيان، وبالرغم من ذلك فقد دافع العثمانيون عن قلعة المدينة باستماتة. حتى إن جيش الإمبراطور لم يستطع بناء معسكر لإدارة العمليات العسكرية أمام قلعة المدينة إلا بعد ٢٠ يومًا بسبب القصف المتواصل للبنادق والمدافع العثمانية. وفي الوقت نفسه تمكّن الجنود العثمانيون من مباغتة قوات العدو بهجمات ليلية مفاجئة أربكتهم وأفقدتهم قواهم، كما خرجوا من قلعة المدينة ثلاث مرات وأغاروا على قوات العدو المرابطة خارجها. إلا أن قوات العدو كانت تُحكم سيطرتها على حصار المدينة، وكانت تعوّض خسائرها من الجنود بوحدات إضافية. ولكن مع الأسف الشديد لم تستطع القلعة الصمود أكثر في مواجهة القوات المسيحية، على الرغم من جهود "الرئيس سنان" المضنية في دفاعه عن ميناء المدينة. واستطاع "كَارْل الخامس" في نهاية المطاف الاستيلاء على القلعة بعد هجوم ثانٍ نفّذته قواته ضد الجيش العثماني. وفرّ من نجا بنفسه من المدافعين عن قلعة المدينة هاربًا إلى المكان الذي كان يتواجد به بَرْبَرُوسْ (١٥ تموز/يوليو ١٥٣٥م). وغنم الجنود الإسبان العديدَ من المعدّات العسكرية والذخيرة التي كانت تملأ القلعة. وبعد سقوط مدينة "حلق الوادي" في أيدي قوات العدو، وفد "مَوْلَايْ حسن" إلى بلاط الإمبراطور "كَارْل الخامس"، وأعرب عن امتنانه لهذا النجاح الباهر. ثم شهدت الفترة اللاحقة على ذلك التاريخ انضمام العديد من المجموعات المحلية إلى صفوف جيش الإمبراطور.

وفي تلك الأثناء، كان بَرْبَرُوسْ يكثّف من استعداداته للدفاع عن مدينة تونس التي كانت تتمتع بمناظر خلابة وطبيعة ساحرة بمساجدها الكثيرة، وأسواقها العامرة، وبساتينها الغنّاء. لكن القوات التي كانت تحت قيادته كانت قليلة العدد، ولم يكن من السهولة بمكان الدفاع عن مدينة كبيرة كالعاصمة تونس بهذه القوة الضئيلة. ولقد تسبب عزوف شعب المدينة عن المشاركة في مقاومة قوات العدو، في تحمّل الجنود العثمانيين هذه المسؤولية بمفردهم. لكن هذا لم يُثنِ بَرْبَرُوسْ عن الدفاع عن المدينة. وتمكّن من تكبيد قوات العدو

خسائر فادحة في المعركة التي نشبت بين الطرفين أمام أسوار مدينة تونس. إلا أنه وفي تلك الأثناء استفاد ٤٠٠٠ أسير مسيحي كانوا محبوسين داخل المدينة من هذه التوترات، وخرجوا من السجون ليضعوا المدافعين عن المدينة بين شقي الرحى. واضطر بَرْبَرُوسْ إلى الانسحاب في نهاية المطاف إلى نواحي الجزائر بصحبة ٢٠٠ من جنوده بتاريخ ٢٨ تموز/يوليو ١٥٣٥م.

وما إن دخل جيش الإمبراطور "كَارْل الخامس" المدينة، حتى بدأ في سلبها ونهب خيراتها. ذلك لأن الإمبراطور أذن لجنوده بسلب المدينة أثناء حصارها. فعاث جنوده فسادًا في المدينة، وعمدوا إلى سرقة المنازل، وإحراق الجوامع والمدارس والمكاتب، ونفّذوا مذابح بشعة ضد السكان المحليين، حتى إنهم قتلوا نحو ٣٠ ألفًا منهم، وامتلأت شوارع المدينة بجثث الضحايا هنا وهناك. كما أُسر الجنود الشبان، والنساء، والأطفال، وعُرضوا للبيع كعبيد وإماء في الميادين. حتى إن "مَوْلَايْ حسن" اضطر لدفع مبلغ ألفيّ قطعة ذهبية لإنقاذ محظيةٍ له وقعت أسيرة في يد أحد البحارة. واستمرت أعمال العنف والقتل أيامًا. وفي النهاية، أمر الإمبراطور جنوده بمغادرة المدينة يوم ١ آب/أغسطس. إلا أن خروجهم من المدينة استغرق وقتًا طويلًا. ذلك لأنهم كانوا يتشاجرون فيما بينهم أثناء نقل الغنائم والأسرى، وهو ما تسبب في تأخر خروجهم من المدينة. وقد وافق "مَوْلَايْ حسن" على التوقيع على معاهدة مع الإمبراطور يوم ٨ آب/أغسطس لإنقاذ شعبه من العبودية، وذلك بعد أن ساهم في تعرّضه لهذه المذابح والإهانات على أيدي قوات العدو. ونصّت هذه الاتفاقية على إطلاق سراح الأسرى المسيحيين بالمدينة، والسماح لهم بأداء عباداتهم ومزاولة شعائرهم الدينية بحرية تامة في تونس. كما وافق "مَوْلَايْ حسن" على التنازل عن مدينة "حلق الوادي" للإسبان، وسداد ١٠ آلاف قطعة ذهبية كنفقات لهذه العملية. وبهذه الطريقة، صار "مَوْلَايْ حسن" من حلفاء الإمبراطورية في إفريقيا. وقد عهد "كَارْل الخامس" بحماية قلعة مدينة "حلق الوادي" إلى القائد "دون بيرناردو ميندوزا (*Don Bernardino Mendozza*)" برفقة قوة عسكرية ضخمة. وتحرك الإمبراطور إلى روما لتقديم فروض الطاعة للبابا، وأرسل "دوريا"

على رأس أسطول عسكري إلى الجزائر لتعقّب بَرْبَرُوسْ والقضاء عليه. ولقد حظي النصر الذي أحرزه الإمبراطور بنشوة كبيرة في العالم المسيحي. وانتشرت الروايات المبالغ فيها عن الهجمات التي انتصر فيها جيش الإمبراطور. إلا أن الحقائق كانت مغايرة تمامًا لهذه الروايات الخيالية. ذلك لأن الشرف الذي حظي به الإمبراطور بذلك الانتصار قد بُني على أشلاء ٣٠ ألف مدني بريء وتخريب كافة أرجاء تونس.

وبعد أن غادر بَرْبَرُوسْ تونس، وصل إلى مدينة "عنّابة"[٦٦] التي كانت تُسمى قديمًا "بونة (*Bone*)". وبعد أن أتمّ استعداداته هناك، انتقل إلى مدينة "بجاية"[٦٧]. وأرسل أوامر إلى قادة أسطوله مطالبًا إياهم بتجميع سفن الأسطول. ومن ثمّ تحرك صوب الجزائر. واستطاع الحصول على عدد من السفن من الجزائر، ليرتفع عدد سفن أسطوله إلى ٣٢ سفينة. ولم يكن اليأس قد تسلّل إلى نفس بَرْبَرُوسْ في أعقاب الهزيمة التي تعرّض لها في تونس. فأبحر على رأس جيشه فورًا إلى جزر "البليار"[٦٨] القريبة من السواحل الإسبانية. وهاجم قلعة مدينة "ماون" الواقعة في جزيرة "منورقة (*Minorka*)"[٦٩]، وقلعة مدينة "بالما (*Polma*)" في جزيرة "ميورقة (*Mayorka*)"[٧٠].

حتى إن سكان جزيرة "ميروقة" استقبلوه بحفاوة بالغة ظنًّا منهم أن أسطوله هو الأسطول المسيحي العائد إلى أوروبا بعد تحقيق انتصار تونس. وكان هذا الهجوم الذي قام به بَرْبَرُوسْ خير مثال على شخصيته الأبية الرافضة للخضوع واليأس على الرغم من الهزيمة التي مُني بها. ونجح بَرْبَرُوسْ في العودة من جزر "البليار" إلى الجزائر بالعديد من الغنائم. وقد نزع هذا الهجوم الذي قام

---

(٦٦) عنّابة: إحدى مدن الجزائر. سابقًا كانت تسمى "بونة". تقع شمال شرق الجزائر على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وتعتبر رابع مدينة في الجزائر من حيث الأهمية. (المترجم)

(٦٧) بجاية: مدينة جزائرية تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط. (المترجم)

(٦٨) جزر البليار: أرخبيل جزر يقع شرق إسبانيا في البحر الأبيض المتوسط. يتكون الأرخبيل من أربع جزر كبرى رئيسية، وتحيط بها عشرات الجزر الصغيرة المتناثرة حولها. (المترجم)

(٦٩) جزيرة منورقة: ثاني أكبر جزر أرخبيل البليار. (المترجم)

(٧٠) ميورقة: أكبر جزر إسبانيا وأرخبيل البليار في البحر المتوسط. (المترجم)

به بَرْبَرُوسْ طعم الفرحة من الاحتفالات التي أحياها المنتشون بالنصر في روما. وعقب ذلك، دعاه السلطان سليمان العائد من رحلة العراقيْن إلى العاصمة إسطنبول. ووصل بَرْبَرُوسْ إلى إسطنبول، وخرج بعدها، وبالتحديد في شهر أيلول/سبتمبر عام ١٥٣٦م، على رأس أسطول ضمّ ٣٠ سفينة من الترسانة الأميرية في رحلة صغيرة إلى السواحل الإيطالية. ويُروى أن هذه الرحلة كانت بقصد تقديم المساعدة لملك فرنسا "فرانسوا الأول (*Fraçois.I*)". لأن السلطان سليمان كان قد وعد ملك فرنسا بتقديم الدعم له في الهجوم المشترك بين الجانبين على مملكة "نابولي (*Napoli*)". ولهذا السبب، أنزل بَرْبَرُوسْ عددًا من جنوده إلى "أوترانتو (*Otoranto*)"[٧١]. وقد أطلق المؤرخون العثمانيون على هذه الحملة اسم "حملة بوليا"، إذ استطاع الجيش العثماني السيطرة على قلعة "كاستيل (*Kastel*)"، لكنه لم يستطع التقدّم أكثر من ذلك.

والسبب في ذلك أن القوات الفرنسية لم تأتِ لتقديم الدعم للقوات العثمانية كما كان متفقًا عليه للإغارة على "نابولي (*Napoli*)". إضافةً إلى أن الأسطول العثماني لم يكن بكامل قوته حتى يتمكّن من تنفيذ هذه العملية العسكرية بمفرده دون مساندة. لكن على أية حال، فقد كانت هذه الرحلة تجربة جيدة نوعًا ما بالنسبة للحملة الثانية التي كانت ستجري بعد عام واحد. وفي تلك الأثناء، حاصرت قوة نمساوية قوامها ١٢ ألف جندي قلعة "سولين (*Solin*)"[٧٢] في عام ١٥٣٧م، تلك القلعة التي كان قد استولى عليها العثمانيون أثناء حملتهم على ألمانيا عام ١٥٣٢م. فهرع حاكم البُوسْنَة "خُسْرَوْ بَكْ" إلى الدفاع عن القلعة، وألحق خسائر فادحة بالجيش النمساوي، كما حاصر قلعة "كليس (*Klis*)" المملوكة لهم واستولى عليها.

---

(٧١) أوترانتو: بلدة وبلدية في مقاطعة ليتشي في إقليم بوليا في جنوب إيطاليا. (المترجم)

(٧٢) سولين: مدينة كرواتية تتبع منطقة دالماسيا المطلة على الساحل الشرقي للبحر الأدرياتيكي. (المترجم)

التوجّه صوب "بوليا"[٧٣] وتحرك السلطان نحو "فلورة"[٧٤]

كانت فكرة غزو إيطاليا تراود السلطان محمد الفاتح جدّ السلطان سليمان، إلا أنه لم يستطع تنفيذ مخططه هذا، فصارت هذه الفكرة من أهم القضايا التي تشغل بال السلطان سليمان الذي حقق هدفين عظيمين كان يرنو إليهما (رحلة "أوترانتو (*Otoranto*)").

وكان السلطان سليمان سيحتاج إلى موقعٍ إستراتيجي ييسّر له التوجّه صوب إيطاليا لتكوين قاعدة عسكرية قوية. فبعد عودة السلطان سليمان من رحلة العراقَيْن، منح بَرْبَرُوسْ مهام أخرى حيث أرسله إلى سواحل "بوليا (*Pulya*) (أوترانتو) بعد تقليده لقب "البَاشَا القبطان". ذلك لأنه في تلك الأثناء كانت العلاقات بين الدولة العثمانية والبندقية آخذة في التردّي. لا سيما وأن مقتل "كِريتّي" دوق البندقية أحدث حالة من عدم الاستقرار والحساسية في المنطقة. وإن وصية "أَيَاسْ بَاشَا" بالتعامل بطريقة أكثر اعتدالًا مع الوضع في البندقية لم تُجدِ نفعًا أمام الرؤى السياسية والأفكار العسكرية التي كان يمتلكها بَرْبَرُوسْ الذي كان يعلم جيدًا نفاق أهل البندقية. وعلى الرغم من أن أهل البندقية لم يتحالفوا مع أي طرف ضد العثمانيين بشكل واضح، إلا أنهم في الوقت نفسه أقدموا على تنفيذ بعض الأعمال المضرة بمصالحهم كلما سنحت الفرصة لذلك، وكانوا يوجّهون القراصنة التابعين لهم للإغارة على السفن التجارية التركية في البحر. فلم ينسَ العثمانيون هذه الحركات الماكرة، وبدأت جبهة مناهضة للبندقية تتشكّل بشكل تدريجي في أوساط رجال الدولة العثمانيين.

---

(٧٣) بوليا: منطقة في جنوب شرق إيطاليا مطلة على البحر الأدرياتيكي في الشرق والبحر الأيوني إلى الجنوب الشرقي ومضيق أوترانتو وخليج تارانتو في الجنوب. (المترجم)

(٧٤) فلورة: هي من كبرى مدن ألبانيا وثاني ميناء في البلاد. (المترجم)

وفي تلك الأثناء أرسل الديوان العثماني مترجمه "يونس بَكْ" إلى البندقية لدعوة حكامها لمراعاة أحكام المعاهدة الموقعة مع الجانب العثماني، إلا أنه قوبل بمعاملة سيئة أفضت في النهاية إلى إصابة العلاقات بين الجانبين بخمولٍ تام. وعندما ذهب "يونس بَكْ" إلى البندقية هذه المرة، دعا حكامها إلى مراعاة أحكام المعاهدة مع الدولة العثمانية، إضافةً إلى توصيتهم بالتحالف مع ملك فرنسا "فرنسوا الأول" ضد الإمبراطور "كَارْل الخامس"، وألمح إليهم بأن جيش الدولة العثمانية وأسطولها جاهزان لهذه المعركة. وقد شرح "يونس بَكْ" هذه المسائل بشكل شفوي باللغة الإيطالية، إلا أن الخطابات التي حملها من الديوان العثماني إلى حكام البندقية لم تتطرّق إلى هذه القضايا السياسية، فهي كانت تنطوي فقط على بعض الموضوعات التجارية بين الجانبين. ويبدو أن السلطان سليمان رغب في عدم الإفصاح عن هذه المهام الدبلوماسية السرّية بشكل كتابي في خطاباته، فأصدر تعليمات شفوية لرسوله إلى البندقية للحديث عن هذا الشأن. وبالرغم من رغبة حكام البندقية في المحافظة على علاقاتهم بالدولة العثمانية، لكنهم في الوقت نفسه لم يكونوا يريدون الدخول في حرب مع "فرانسوا الأول" ضد "كَارْل الخامس"، ذلك لأنهم كانوا ينتهجون سياسة "احزن مع الخاسر في الحرب، وافرح مع الفائز فيها"، بحيث لجأوا إلى هذه السياسة الحيادية كذلك في أعقاب معركة "بافيا (*Pavia*)" بين الطرفين نفسيهما.

واستقبل حكام البندقية "يونس بَكْ" بحفاوة، وأعربوا له عن نواياهم السلمية، ولم يُشيروا إلى رغبتهم في الدخول في تحالف ضد الإمبراطور "كَارْل الخامس". وأبلغوه بأن عليه الرحيل فورًا من المدينة، لأن أحد رسل الإمبراطور نما إلى سمعه أن رسولًا عثمانيًا يتواجد في البندقية، وعلم بما جاء به من عرضٍ لمجابهة الإمبراطور. وكان رسول الإمبراطور قد وفد إلى المدينة لإقناع حكامها بالتحالف مع الإمبراطور ضد فرنسا والدولة العثمانية. فزادت هذه التصرفات من حكام البندقية من شك العثمانيين إزاءهم. كما تعرّض "يونس بَكْ" لهجوم من أهل البندقية خلال خامس رحلة يجريها إلى المدينة، مما شكّل حجةً مقنعة

لدى العثمانيين بأن مواثيق السلام مع البندقية قد فُسخت، وبدأت الحرب عليهم. وقد قام "جيرولامو ميشيل (*Girolamo Michiel*)" المكلَّف بالدفاع عن جزيرة "كُورْفُو" اليونانية بالهجوم على عدد من السفن العثمانية التي كان على متن إحداها "يونس بَكْ"، والتي كانت في طريقها إلى البندقية للتفاوض مع حكامها، وذلك لعدم علمه بالمفاوضات الدبلوماسية الجارية بين العثمانيين والبندقية. وأُسر الأتراك الذين فرّوا هاربين إلى الشاطئ، وكان من بينهم أيضًا "يونس بَكْ". فاعتذر حكام البندقية إلى "يونس بَكْ" وأبلغوه أن هذا الهجوم تمخّض عن سوء فهم، ومنحوه ٦ آلاف عملة ذهبية للتستّر على هذه الواقعة.

وعلم أهل البندقية أن العثمانيين يستعدون للحرب، فاعتقدوا أنهم سيقدمون على حملتهم العسكرية برًا عبر الأراضي المَجَرية، وذلك لتيقّنهم من أن الجيش العثماني قويٌّ للغاية في البَرّ. حتى إن رسولًا من البندقية يُدعى "توماسو موسينيجو (*Tomaso Mocenigo*)" سافر إلى إسطنبول ليوصل تهاني دوق البندقية إلى السلطان سليمان الذي عاد من غزوة العراقيْن منتشيًا بالنصر. وأعرب رسول البندقية عن شكواه للسلطان العثماني من رفع الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع المصدَّرة من البندقية إلى منطقة الشام، وعدم حصوله على خطابات سفيره إلى البندقية، وبعض القضايا الأخرى المغايرة لبنود المعاهدة الموقعة بين الطرفين. ولقد أعطى "أَيَاسْ بَاشَا" -الذي تولّى منصب الصدر الأعظم خلفًا لـ"إبراهيم بَاشَا"- ضمانات لرسول البندقية من أجل حل هذه القضايا، كما علم حكام البندقية أن التجهيزات العسكرية الضخمة التي يقوم بها الجيش العثماني في الموانئ إنما هي موجّهة إلى تونس ونابولي، مما أحيا الأمل من جديد في قلوب أعضاء مجلس البندقية. لكن كما ذكرنا سابقًا، فإن تصرفات حكام البندقية ضد الدولة العثمانية دفعت هذه الأخيرة لتنظيم حملة عسكرية ضد المدينة التي كان يراود حلم فتحها مخيلةَ السلطان محمد الفاتح. كما أخذ القادة العثمانيون بعين الاعتبار إدخال البندقية كذلك في الحلف المضاد للدولة العثمانية الذي شكّله البابا، فيما كانوا يتخذون القرار

لمهاجمة المدينة. فقد نجح البابا "باول الثالث (*Paul.III*)" في التوفيق بين الإمبراطور "كَارْل الخامس" والملك "فرانسوا الأول"، وفرض تهدئة فيما بينهما، ثم أُدخل حكام البندقية هم أيضًا في إطار هذا الاتفاق (١٥٣٧م). لكن الفرنسيين كان من المفترض أن يُرسلوا أسطولًا إلى البحر الأدرياتيكي وفق اتفاق التحالف الذي يجمعهم بالدولة العثمانية.

لقد بدأت ترسانات الدولة العثمانية في إسطنبول ببناء السفن تدريجيًا عقب عودة السلطان من رحلة العراقيْن، كما أرسل الديوان أمرًا إلى كافة مناطق الأناضول لتجميع ٣٠ ألف جدّاف. أعقب ذلك تجهيز أسطول ضخم مكوّن من ٢٠٠ سفينة بمختلف الأحجام بقيادة الوزير الثاني "لطفي بَاشَا" وبَرْبَرُوسْ خير الدين، وانطلقت هذه السفن إلى البحر بتاريخ ١ ذي الحجة ٩٤٣هـ (١١ أيار/مايو ١٥٣٧م). ثم تحرّك السلطان سليمان برًّا بعد انطلاق الأسطول نحو سواحل البحر الأدرياتيكي بأسبوع كامل، وكان يرافقه ابناه الأمير "سليم" و"محمد" (٧ ذي الحجة - ١٧ أيار/مايو).

وانطلق الجيش العثماني برًّا صوب مدينة "إلباسان (*İlbasan*)" في ألبانيا، مرورًا بمدن "أَدِرْنَه" و"ساماكوف (*Samakov*)" و"سكوبيه". وبينما كان الجيش العثماني قد وصل إلى مدينة "فلورة "الألبانية، كان الأسطول منشغلًا بإنزال الجنود إلى سواحل مدينة "أوترانتو" الإيطالية، وفي تلك الأثناء هاجم "أندريا دوريا" أسطولًا عثمانيًا مكونًا من ١٢ سفينة قابله بالقرب من جزيرة "باكسوس (*Paksos*)" اليونانية، بعدما انطلق إلى البحر يوم ١٧ تموز/يوليو. وكان هذه الأسطول الصغير تحت قيادة أمين ترسانة جاليبولي "علي شلبي"، وكان في طريقه للانضمام إلى الأسطول العثماني عند سواحل إيطاليا. وقد قاتل "علي شلبي" ببسالة فائقة في مواجهة هذه القوات الضخمة، وكبّد العدو خسائر فادحة. حتى إن البحّار "دوريا" أُصيب في هذه المعركة في ركبته. وعلى الرغم من هذه الجسارة التي أظهرها الأتراك، إلا أن الأسطول العثماني لم يستطع الصمود مدة أطول أمام قوات العدو الهائلة حيث دمّرت بعض السفن،

وأسر البعض الآخر. وما إن سمع بَرْبَرُوسْ بهزيمة هذه الأسطول العثماني، انطلق للهجوم على أسطول "دوريا"، لكن هذا الأخير انسحب من الساحة وتوارى عن الأنظار. وحينها شعر بَرْبَرُوسْ بضرورة التصرّف بحيطة وحذر تحسّبًا لأي هجوم مماثل محتمل. وشكّل أسطولًا من ٦٠ سفينة ليرافق به السفن العثمانية التي كانت قادمة من مصر تحمل المؤن والحبوب لحمايتها. ثم بعد ذلك اتحد مع أسطول "لطفي بَاشَا" العائد من سواحل "بوليا"، وتوجّها صوب سواحل مدينة "بريفيزا" اليونانية. وفي حقيقة الأمر، فإن هذه القوات أنزلت ٨ آلاف جندي إلى "أوترانتو"، فدمّروا المدن الضعيفة التي قابلتهم في المنطقة، ومكثوا في هذه المنطقة على مدار شهر كامل دون مقاومة تُذكر.

لم يكن السلطان سليمان قد أعلن بعد حالة الحرب على البندقية بشكل قطعي. وفي تلك الأثناء، هاجمت سفن البندقية أسطولَ "يونس بَكْ" الذي كان عائدًا من المدينة، كما ذكرنا أعلاه، وحصل البحارة العثمانيون على خطاب أرسله "أندريا دوريا" إلى أميرال البندقية "بينيديتو بيسارو (*Benedetto Pesaro*)" وألمح فيه إلى عقْد اتفاق سرّي بين الطرفين ضد الدولة العثمانية، كل ذلك دفع القوات العثمانية لتحويل وجهتها من فلورة إلى البندقية. وأمر السلطان "لطفي بَاشَا" بحصار جزيرة "كُورْفُو" الخاضعة لحكم البندقيين، وكلّف الوزير "مصطفى بَاشَا" بإخماد ثورات المناطق الألبانية بينما كان متواجدًا في فلورة. وقد نجحت القوات العثمانية في عملية العقاب تلك التي تمّت بمشاركة الصدر الأعظم "أَيَاسْ بَاشَا".

غادر "لطفي بَاشَا" سواحل فلورة يوم ٢٥ آب/أغسطس، وبدأ بعدها بيوم واحد في حصار "كُورْفُو". وعمد الأسطول العثماني إلى قصف مدفعي على قلعة "سان أنجيلو (*San Angelo*)" المتحصنة في الجزيرة اليونانية التي تخضع لحكم البندقية. وكانت مسألة السيطرة على هذه القلعة المحاطة بالمياه من ثلاث جهات أمرًا في غاية الصعوبة على العثمانيين، إلا أن قذائف المدافع بدأت تدريجيًا في إحداث ثقوب في أسوار القلعة. وكان الجنود

المغاوير العثمانيون قد استولوا على بعض قرى هذه الجزيرة. وأما السلطان سليمان، فتحرّك من فلورة يوم ٢٦ آب/أغسطس إلى ميناء "باستيا" المقابل لجزيرة "كُورْفُو"، وأنشأ به مقرًا لمتابعة الأحداث. وبينما كان القتال على أشده، أرسل السلطان "أَيَاسْ بَاشَا" إلى "كُورْفُو"، وأمره برفع الحصار عن الجزيرة. لكن "لطفي بَاشَا" وبَرْبَرُوسْ اعترضا على هذا القرار متحججين بأن قلعة الجزيرة فُتحت بها ثغرات، وإن رُفع الحصار عنها الآن، فإنّ جميع جهودهم سوف تذهب هباءً. إلا أن ذلك لم يغير شيئًا في قرار السلطان.

وتجدر الإشارة إلى أن العديد من المؤرخين العثمانيين يعزون قرار السلطان برفع الحصار عن جزيرة "كُورْفُو" إلى برودة الجو بشكل مفاجئ، وهطول الأمطار الغزيرة. ويروي هؤلاء المؤرخون أيضًا أن قذيفة مدفعية قُصفت من داخل القلعة فسقطت فوق عدد من الجنود العثمانيين، مما أدّى لاستشهاد أربعة منهم، فأمر السلطان سليمان برفع الحصار فورًا قائلًا:

"... أنا لا أضحي بجندي واحد من جنودي ولو في سبيل ألف قلعة كهذه..."

لكن هذه الأسباب والحجج لا يستسيغها العقل كمبرر لرفع الحصار. ويرى بعض المؤرخين المعاصرين أن السلطان سليمان لم يكن مطمئن النفس في الأساس لهذه المحاولة، كما لم يكن مقتنعًا بأن التحالف مع ملك فرنسا "فرانسوا الأول" سيمكن تطبيقه على أرض الواقع في لحظة كهذه، فضلًا عن أنه لم يكن يثق في القدرة العسكرية والإستراتيجية للصدر الأعظم "أَيَاسْ بَاشَا". إلا أننا لا نصادف أدنى إشارة إلى عدم كفاءة "أَيَاسْ بَاشَا" في مصادر التاريخ العثماني. هذا إضافةً إلى عدم وجود أي معلومات حول مواقف "فرانسوا الأول" ووساطته بين الطرفين. من ناحية أخرى، وصل الأسطول الفرنسي إلى سواحل ألبانيا بينما كان الأسطول العثماني يحاصر جزيرة "كُورْفُو"، ثم تعقّب سفن بَرْبَرُوسْ حتى وصل إلى جزيرة "خيوس" اليونانية، وقضى بها فصل الشتاء. ومن ثم عاد الأسطول الفرنسي بقيادة البارون "سان بلانكار" إلى فرنسا في شهر حزيران/يونيو من العام التالي.

وبهذه الطريقة رفع السلطان سليمان الحصار عن الجزيرة، وانطلق نحو إسطنبول يوم ٢٤ أيلول/سبتمبر مرورًا بمدن "بيتولا" و"أوستروفا (*Ostrova*)" و" سَلَانِيكْ" و"سيرس (*Serez*)" و"فيريس (*Feres/Ferecik*)" و"ديماتوكا (*Dimatoka*)" و"أَدِرْنَـه"، إلى أن وصل في النهاية إلى العاصمة إسطنبول يوم ١٨ جمادى الآخرة ٩٤٤هـ (٢٢ تشرين الثاني/نوفمبر ١٥٣٧م). ولم تكن عودة السلطان إلى إسطنبول نهاية للصراع بين الدولة العثمانية والبندقية، إذ إن هذا الصراع استمر لفترة في البحر. وبعد أن انتهت رحلة "بَرْبَرُوسْ خير الدين بَاشَـا" إلى إيطاليا، غادرها على رأس أسطول من ٦٠ سفينة، وأما السفن الباقية من الأسطول فعاد بها "لطفي بَاشَـا" إلى إسطنبول. وبدأ بَرْبَرُوسْ في التخطيط لأسفارٍ جديدة مستخدمًا الأسطول الذي كان يقوده. ففي البداية غزا جزيرة "كيفالونيا (*Kefalonya*)" التي تسيطر عليها البندقية، ثم واصل طريقه نحو الجنوبِ الشرقي. وفي تلك الأثناء حاصر حاكم ولاية مورية "قاسم بَكْ" قلاع مدن "مونيمباسيا (*Monembasia*)" و"مالفاسيا (*Malvasia*)" و"نافبليو (*Napoli*)" اليونانية التي كانت خاضعة لسيطرة حكام البندقية. وأما بَرْبَرُوسْ فقد هاجم جزيرة "كيثيرا" اليونانية التي كان يسيطر عليها البنادقة، وغنم الجيش العثماني غنائم كثيرة من هذه الجزيرة التي يُطلق عليها أيضًا اسم "جوكا (*Çuka*)"، ثم حاصر بعض الجزر الأخرى عند خليج "أجانيطس" لمدة ثلاثة أيام، واستولى عليها في نهاية هذه المدة. ثم هاجم جزر "مرتد" و"باروس (*Paros*)" و"أنتيباروس (*Antiparos*)" اليونانية الواقعة في بحر "إِيجَه" واستولى عليها. وبعدها وصل حتى سواحل جزيرة "ناكسوس (*Naksos*)" التي تعتبر واحدة من أهم مجموعة جزر "كيكلادس (*Kiklad*)". وكانت هذه الجزيرة التي أطلق عليها الأتراك اسم "نَاقْشَا (*Nakşa*)" هي مركز مجموعة جزر "كيكلادس" اليونانية. ولقد أدرك حاكم الجزيرة "جريسبو (*Grispo*)" أنه لن يستطيع مقاومة الأسطول العثماني، فأذعن للسيطرة العثمانية، ودفع مبلغ ٥ آلاف قطعة ذهبية مقدمًا، إذ اتفق الطرفان على دفع حاكم الجزيرة هذا المبلغ سنويًّا لخزينة الدولة العثمانية. واستطاع بَرْبَرُوسْ فيما بعد السيطرة على عدد من الجزر

مثل "سيروس (*Syra*)"، و"نيوس (*Nios*)"، و"تينوس (*Tenos*)"، و"باتموس (*Patmos*)"، و"جياروس (*Giyarus*)"، و"أستيباليا (*Stampalya*)".

ومن ثم عاد بَرْبَرُوسْ إلى إسطنبول بعد غزو هذه الجزر حاملًا معه العديد من الهدايا والأسرى لتقديمهم إلى السلطان. وبينما كان بَرْبَرُوسْ في خضم هذه الغزوة، حاصر حاكم مورية "قاسم بَكْ" مدينتي "نافبليو" و"مالفاسيا (*Malvasia*)" اللتين كانتا بمثابة آخر ما كان يملكه حكام البندقية من أراضٍ في مورية، وقصفهما بالمدافع الضخمة، إلا أنه لم يستطع استعادتهما مرة أخرى.

وفي الواقع، كان السلطان سليمان على يقينٍ تام من أنه خرج في غزوة فاشلة إلى جزيرة "كُورْفُو"، ولهذا السبب فقد عمد إلى تنفيذ مخططات جديدة لتلافي الآثار السلبية لهذه الحملة الفاشلة. وبدأ السلطان في الاهتمام عن كثب بقضية "مولدوفا (*Moldova*)" التي كانت تابعة للدولة العثمانية في ذلك الوقت، رغبةً منه في التخلص من آثار هذا الفشل. وفيما كان منشغلًا بهذه الأمور، كان يتلقّى أنباء الصراع الواردة من المناطق القريبة من "دالماسيا (*Dalmaçya*)" -كرواتيا حاليًا- و"سلوفينا (*Slovenya*)"، ويتابعها باهتمام بالغ، إذ كانت حدود "كرواتيا" تشهد تطورات في غاية الخطورة. وعندما عاد السلطان من رحلة "كُورْفُو"، كانت قوات آل "هابسبورج" قد بدأت في مزاولة أنشطتها العسكرية في المناطق القريبة من كرواتيا.

لقد تحجّج قادة حدود "هابسبورج" باستيلاء حاكم البُوسْنَة "غازي خُسْرَوْ بَاشَا" على مدينة "كليس" الواقعة جنوب شرق كرواتيا، ومحاولته لتنفيذ بعض المخططات الأخرى، وشرعوا في تجميع القوات على طول امتداد نهر "درافا (*Drava*)". بحيث تجمّع ١٦ ألف جندي مشاة، و٨ آلاف من الفرسان وعُيّن الجنرال "كاتزيانير (*Katziener*)"[٧٥] في قيادة هذه الوحدة العسكرية. وكانت هذه الوحدة تضمّ نبلاء وأمراء من "بوهيميا"، و"إيستيريا"، و"تيرول"، و"كارنيول"، و"كاريتيا". وكان يرافق هذه الوحدة ٤٩ مدفعًا، فعبرت الحدود ووصلت

(٧٥) يُذكر باسم "كوتشيان" في المصادر التاريخية العثمانية. (المترجم)

إلى مشارف مدينة "أوسييك" الكرواتية تمهيدًا لحصارها. إلا أنهم عجزوا عن حصار المدينة بفضل الهجمات المتكررة التي نفّذها ضدهم "يحيى بَاشَا زاده محمد بَكْ"، حتى إنهم اضطروا إلى الدفاع عن أنفسهم. وفي هذه الأثناء دخل عدد من السكان النصارى القاطنين هذه المنطقة إلى مقر إقامة جيش "هابسبورج"، وخطفوا جياد الجيش وثيرانه، مما أحدث إرباكًا في صفوف الجيش. وعندما سمع القائد العسكري "كاتزيانير" بقدوم "غازي خُسْرَوْ" و"يحيى بَاشَا زاده محمد بَكْ"، بدأ في الانسحاب بعد أن أخذت حالته في التدهور مع مرور الوقت. ولأنه قام بهذا الانسحاب على عجلة، فقد تدحرجت بعض قطع المدفعية التابعة لجيشه وهَوت في مياه النهر.

ولما سمع حاكم ولاية "سَمَنْدِرَه" عن التحركات العسكرية على خط الحدود، أرسل رسولًا إلى "جعفر بَكْ" حاكم "إيزيورنيك (*İzyornik*)"، و"أحمد" شقيق حاكم مدينة "كروشيفاتس" الصربية، و"مراد" حاكم مدينة "كليس"، يخبرهم بقدوم "يحيى بَاشَا زاده محمد بَكْ" وحاكم البُوسْنَة "خُسْرَوْ بَاشَا"، وطالب منهم المجيء فورًا. ثم باغتت القواتُ العثمانية المتجمعة عند مدينة "فوكوفار (*Vukovar*)" الكرواتية وحدات جيش "هابسبورج". فعلم القائد "كاتزيانير" بقدوم القوات العثمانية، فعبر بجنوده تلال جبل "فيرتيجو (*Vertizo*)" المرتفعة، وعندما وصل إلى الأراضي المنبسطة قابله فرسان الجيش العثماني. فألحق الجيش العثماني هزيمة ساحقة بالنمساويين الذين تكبّدوا خسائر فادحة في هذه المعركة التي وقعت يوم ١ كانون الأول/ديسمبر ١٥٣٧م. حتى إن القائد النمساوي الشهير "بول باكتيش (*Pol Bakiç*)" لقي مصرعه في هذه المعركة، وذلك بعد أن كسب شهرةً واسعة خلال حصار مدينة "جونس"، وأدار المعركة التي وقعت بالقرب من مدينة "نوشتات" الألمانية والتي استشهد خلالها "قاسم بَاشَا" أحد المغاوير الأتراك. وفي هذه الليلة عقد "كاتزيانير" مؤتمرًا جمعه بأعضاء مجلس الحرب، واتخذ قرارًا بالانسحاب عبر مدينة "فالبو". لكن في اليوم التالي علم "كونت لودران" الذي كان يستعد لتنفيذ هذه الخطة، أن القائد "كاتزيانير" اصطحب بعضًا من القوات خلسةً في الليل وفرّ هاربًا. وعليه، فقد

فضّل "لودران" قتال العثمانيين، فمُني بهزيمة نكراء في اليوم التالي، وسقط أسيرًا في أيدي الجيش العثماني. وأرسله "يحيى بَاشَا زاده" إلى إسطنبول، إلا أنه وافته المنية وهو في الطريق لشدّة إصابته. وقد أدخل هذا النصر الذي حققه الجيش العثماني في "فيرتيجو" فرحة عارمة على إسطنبول. وبينما كانت هذه الأحداث تحدث تباعًا في "فيرتيجو"، كانت نقطة أخرى من الحدود المشتركة بين الدولة العثمانية والنمسا، على ضفتي نهر "تيسّا"، تشهد أحداثًا جديدة. فقد هاجمت القوات النمساوية وحدات الجيش العثماني المرابضة عند مدينة "تُوكَايْ (*Tokay*)" المَجَرية التي تقع عند موقع التقاء نهر "تِيسّا" ومدينة "بودروج"، وذلك بغرض استعادة المدينة من أيدي العثمانيين. وقاد القوات المنتسبة إلى منطقة "بوهيميا (*Bohemya*)" التشيكية الجنرال "ديفيل (*Devel*)" الذي هجم بجنوده لاستعادة المدينة، إلا أنه اضطر لطلب المزيد من القوات إثر تدخل القوات العثمانية لصدّ هجومه، واستمر في القتال بعد أن حصل على الدعم العسكري، لكنه فشل في الاستيلاء على المدينة من أيدي العثمانيين.

وكان السلطان سليمان يستعد لغزو مولدوفا عندما وصلته هذه الأنباء التي تتحدث عن الوقائع التي تشهدها حدود دولته مع كرواتيا. لكنه كان يعتقد ضرورة تنظيم شؤون أسطوله في البحر. فأرسل "بَرْبَرُوسْ خير الدين بَاشَا" في البداية إلى بحر "إِيجَه" مرة أخرى بتاريخ ٩ المحرم ٩٤٥هـ (٧ حزيران/ يونيو ١٥٣٨م). لكن هذه الرحلة لم تتم بسهولة كما كان متوقعًا. فقد أدرك بَرْبَرُوسْ ضرورة زيادة عدد سفن الأسطول العثماني، ولهذا السبب طالب العاملين بترسانة صناعة السفن بالإسراع في إنشاء السفن. وكان يأمل في الانتهاء من إنشاء ١٠٠ سفينة بعد الحصول على موافقة السلطان. وبدأ العاملون في الترسانة بإنشاء هذه السفن على الفور تنفيذًا لما تلقّوه من أوامر في هذا الصدد. وبينما كانت السفن في طور البناء، طُلب من بَرْبَرُوسْ الخروج إلى البحر، إلا أنه اعترض على هذه الفكرة نظرًا لأن السفن لم تُجهَّز بعد. مما دفع وزراء الديوان للجوء إلى حيلةٍ ماكرة لحثّه على الخروج إلى البحر. فأشاعوا خبرًا

مُفاده أن "أندريا دوريا" وصل إلى جزيرة كريت، وينتظر في البحر بصحبة ٤٠ سفينة لمهاجمة الأسطول العثماني الذي يقوده "الرئيس صالح" -المكون من ٢٠ قطعة بحرية- وهو في طريقه لجلب بضائع الهند من مصر. فهرع بَرْبَرُوسْ على الفور للانطلاق إلى البحر على رأس السفن التي كانت في حوزته بتاريخ ٧ حزيران/يونيو (٩ المحرم) وفق رواية بعض المؤرخين العثمانيين، أو بتاريخ ٧ تموز/يوليو (٩ صفر) بحسب رواية البعض الآخر. وكان يرافقه في هذه الرحلة ٤٠ سفينة. كما كانت ٩٠ سفينة تخضع لعملية البناء، ستلحق بأسطوله فور الانتهاء من إنشائها. وقد استقبله السلطان قبل انطلاقه إلى البحر، كما ودّعه رجال الدولة وأركانها حتى الميناء.

لقد خرج بَرْبَرُوسْ خير الدين إلى البحر بنيّة مهاجمة أسطول "أندريا دوريا". لكنه عمد إلى فتح بعض الجزر في بحر "إِيجَه" عندما علم أن "دوريا" لم يصل إلى جزيرة "كِرِيتْ". ولما وصل إلى جزيرة "إمروز (*İmroz*)"، أخرج ١٧ مدفعًا قابلًا للاستخدام من سفينة غارقة عند سواحلها. ثم بعد ذلك فتح الأسطول العثماني جزيرة "سكياثوس (*Sciathus*)"؛ التي منحها العثمانيون آنذاك اسم "إيشكاتوز (*İşkatoz*)"، بعد حصار دام لستة أيام، وأسر ٣٨٠٠ شخص. وفي تلك الأثناء، قدِم من إسطنبول أسطول مكون من ٩٠ سفينة، واتحد بالأسطول الذي كان يقوده "الرئيس صالح" والمؤلف من ٢٠ سفينة، وانضمّا إلى أسطول بَرْبَرُوسْ، ليرتفع بذلك عدد سفن الأسطول العثماني إلى ١٥٠ سفينة. لكن ١٢ سفينة من هذا الأسطول أُعيدت إلى شبه جزيرة "جاليبولي" لنقص تجهيزاتها وافتقارها للحد الأدنى من الجنود. وأُرسل الجزء الباقي من الأسطول صوب جزيرة "وابية" اليونانية. وحينها قام بَرْبَرُوسْ بالاستيلاء على جزيرة "سكيروس (*Skyros*)"، وبعث الغنائم التي ظفر بها من الجزيرة إلى العاصمة إسطنبول. ثم بسط سيطرته على جزر "أندروس (*Andros*)"، و"تينوس (*Tinos*)"، و"سريفوس (*Seriphos*)"، و"سكوربينتا (*Skorpenta*)" من الشمال نحو الجنوب على التوالي. ثم توجّه بعدها إلى جزيرة كِرِيتْ

بعدما فرغ من أنشطته في جزر "سبورات" (*Sporat*) و"كيكلاد" (*Kiklad*).
وكانت جزيرة "كِرِيتْ" تتبع حكم البندقية في ذلك الوقت، إذ كان حكام البندقية قد اشتروها من البيزنطيين في عام ١٢٠٤م مقابل ١٠٠ ألف قطعة نقود فضية في إطار اتفاقية موقعة بين الطرفين. وسيطر عليها حكام البندقية منذ ذلك التاريخ، وكانوا يعاملون أهل الجزيرة من الرومان بظلم وفظاظة. وكان إخضاع حكام البندقية جزيرة كِرِيتْ لسيطرتهم يمنحهم إمكانيّة التحكّم الكامل في بحر "إيجَه". وكان العثمانيون على وعي تام بأن استيلاءهم على هذه الجزيرة التي تعتبر بمثابة قاعدة مهمة بالنسبة لحكام البندقية، يعني إحكام السيطرة على بحر "إيجَه" بأكمله. وأدرك وقتها بَرْبَرُوسْ أهمية هذه الجزيرة، وتيقّن من أن قواته غير كافية لمهاجمة جزيرة كبيرة بهذا الحجم والسيطرة عليها، فخطّط لإرسال بعض جنوده الشجعان في هجمات مفاجئة على الجزيرة لتدمير المواقع الهامة بها، إذ أدرك أن هذه الهجمات المباغتة ستكون بمثابة إعدادٍ جيّد لأي هجوم كبير محتمل تقوم به قواته في المستقبل. ووصل أسطول بَرْبَرُوسْ إلى جزيرة كِرِيتْ على مشارف قلعة "كاندية". فهمّ جنوده بتدمير نحو ٢٠ قرية قريبة من منطقة "ميلابوتاما" (*Milapotama*) بالجزيرة، ومن ثم هاجموا مدينة "ريثيمو". بعدها وصلوا إلى منطقة يُطلق عليها اسم "أبوكوران" في الجزيرة، واستولوا على ٨ قرى بها، وأسروا عددًا من قاطنيها. ثم بعد ذلك انطلقوا نحو منطقة "سودا"، وفتحوا الأماكن المحيطة بها، وانتقلوا إلى منطقة "خانيا" الواقعة غرب جزيرة كِرِيتْ. ودافع أهل "خانيا" (*Hanya*) عن المدينة باستماتة محتمين بقلعتها الحصينة، مما دفع بَرْبَرُوسْ للتخلّي عن حصار المدينة لمدة طويلة، وآثر الإغارة على المدن والقرى المجاورة لها. وبهذه الطريقة بدأت الدولة العثمانية في تشكيل ضغط كبير على جزيرة كِرِيتْ وحكامها. وبعد أن استمرت هجمات العثمانيين على الجزيرة لمدة شهر متواصل، لم يعُد بَرْبَرُوسْ إلى إسطنبول، واتجّه نحو جزيرة "كارباثوس"، واستولى على هذه الجزيرة التي كانت تحتضن فيها ثلاث قلاع، ثم أقام بها لعشرة أيام. وفي تلك الأثناء، بسط

سيطرته على جزيرة "كاشوت (*Kaşot*)" القريبة. أعقب ذلك مرور الأسطول العثماني ببعض الجزر المجاورة لجزيرة رودس. إلا أن رياح السموم هبّت بشدّة على سفنه، مما أنهك قوى مُجدّفي سفن الأسطول، فأمرهم بَرْبَرُوسْ بالاستراحة لمدة في جزيرة "كوس". وانضمّ عددٌ من المجدّفين النصارى إلى الأسطول العثماني في هذه الجزيرة، كما لحق بهم بعض المجدّفين القادمين من الأناضول. وبعد أن حصل الأسطول العثماني على بعض احتياجاته الضرورية في هذه الجزيرة، انطلق إلى جزيرة "أستروبالاي (*Astropalay*)"، واستولى عليها. فقد طاف الأسطول العثماني خلال هذه المدة بـ ٢٥ جزيرة تابعة لحكم البندقية في بحر "إيجَه"، بسط نفوذه على ١٣ منها، وفرض الخراج على ١٢ أخرى، ودمّر جزيرة كِرِيتْ. إلا أن سيطرة الأسطول العثماني على هذه الأماكن التابعة لحكام البندقية وتدميرهالم تُحرّك ساكنًا لأسطول البندقية.

ومن المحتمل أن يكون السلطان سليمان قد تلقّى أنباء هذه الغزوات التي قام بها بَرْبَرُوسْ بينما كان في طريقه إلى غزو مولدوفا. لكنه كان قد أصدر أوامر بتنفيذ مهمة بحرية أخرى قبل انطلاقه في هذه الغزوة بشهر كامل، إذ نُفّذت هذه الأوامر على أكمل وجه. كان الوالي العثماني على مصر "سليمان بَاشَا الخادم" قد تحرّك صوب الهند مصطحبًا الأسطول العثماني من مدينة السويس المطلة على البحر الأحمر للحيلولة دون ازدياد نفوذ البرتغاليين في المياه الهندية. وكان سبب انطلاق سليمان بَاشَا في هذه الغزوة لتلبية طلب المساعدة الذى تقدّم به حكام السلطنات المسلمة الصغيرة في الهند لمواجهة تهديدات البرتغاليين. وحظى هذا الطلب بدعم من السلطان سليمان الذي كان يبذل ما بوسعه لخدمة المسلمين وحمايتهم من الظلم بصفته خليفة لهم. وعندما وصلته أنباء الانتصار الكاسح الذي حققه بَرْبَرُوسْ في البحر المتوسط، والمعلومات الأولية لغزوة سليمان بَاشَا نحو الهند، كان السلطان في طريق عودته من مولودفا منتشيًا بالنصر الذي حققه بها.

غزو مولدوفا

لقد شرع العثمانيون في غزو مولدوفا -التي تحمل في الوقت نفسه اسم "بوغدان"- في البداية إبّان عهد السلطان "بايزيد الثاني"، إذ استطاعوا الاستيلاء على قلاع مدينتي "كيلي" و"أكيرمان". ولم تكن هذه الدولة قد فتحها العثمانيون بالمعنى الكامل، بل كانت تتبعهم في صورة الاعتراف بسيادة السلطان ودفع الضرائب للدولة العثمانية. وكانت مولدوفا تدفع ضرائب إلى الدولة العثمانية بقيمة ٤ آلاف قطعة ذهبية في عصر الحاكم "ستيفان سيل ماري" في الفترة بين عامي ١٤٥٧ - ١٥٠٧م. وقد طرأت زيادة على هذه الضريبة في السنوات اللاحقة. واعتبارًا من عام ١٥٢٧م شرع الأمير "بيترو راريش (*Petru Rareş*)" في إدارة مولدوفا بأمر سلطاني صادر من السلطان سليمان. وحصل الأمير "راريش" على تصريح من السلطان سليمان بإدارة مولدوفا بواسطة أحد رسله بينما كان السلطان متواجدًا في المَجَر، وكان هذا التصريح ينص على حرية ممارسة الطقوس الدينية في مولدوفا، وأن حق انتخاب الحُكّام يكون مملوكًا للنبلاء والشرفاء، إلا أنه في الوقت نفسه فإن الحاكم المنتخب يجب الموافقة عليه من قبل السلطان. كما قرّرت الدولة العثمانية تشكيل هيئة من النبلاء، على أن تُرسِل هذه الهيئة كل عام ٤ آلاف قطعة ذهبية كجزية إلى العاصمة إسطنبول، إضافةً إلى ٤٠ مُهْرةً، و٢٠ مُهْرًا كعلامة على التبعية للدولة العثمانية. ولقد حصل السلطان سليمان بنفسه على الضرائب المقرّرة من الأمير "بيترو راريش" بينما كان عائدًا من فيينا، وفي مقابل ذلك أهداه معطفًا من الفرو، وذيليّ حصان، وقلنسوة، كما سمح له ببناء قصرٍ لنفسه في حي "فنار" الشهير بإسطنبول. لكن الأمير "راريش" بعد مدة من الوقت بدأ يسيء التصرّف أمام هذه الإحسانات من السلطان سليمان، وأقدم على ارتكاب بعض الأفعال غير السويّة. وفي نهاية الأمر، اضطر السلطان لمهاجمة مولدوفا. ذلك لأن "راريش" اعتدى على مدينة "أَرْدَلْ" التي كانت تعيش فترة من النزاعات في ذلك الوقت،

وأقام تحالفًا سريًّا مع الإمبراطور "فرديناند" ضد الدولة العثمانية وملك المَجَر "يانوش زابوليا"(٧٦). كما عادى الحاكم البندقي "ألفيس كِرِيتّي" الذي كان رجل الدولة العثمانية الموثوق به في هذه المنطقة، وتسبّب في مقتله. وامتنع عن الضريبة التي كان يدفعها سنويًّا إلى العثمانيين. هذا إضافةً إلى عزوفه عن إرسال ألف فارسٍ طُلبوا منه مؤخرًا.

وبطبيعة الحال كان مقتل "كِرِيتّي" من أكثر الأسباب التي أفضت إلى غضب السلطان على الأمير "راريش (*Rareş*)". فكان هذا الرجل يرافق إبراهيم بَاشَا في السابق، ثم كسب ثقة السلطان سليمان. وقد أرسله السلطان إلى مدينة "أَرْدَلْ" لتشكيل حكومة تتبع الدولة العثمانية في منطقة جبال "كاربات" الممتدة في أوروبا الوسطى والشرقية. وقد وقع "كِرِيتّي" أسيرًا في يد الأمير "راريش" حاكم مولدوفا بعد حصار قلعته، ثم قُتل بعد ذلك. وقد قرّر السلطان غزو مولدوفا في شهر أيار/مايو عام ١٥٣٨م بعد هذه التصرّفات التي قام بها "راريش"، وعلاقته غير الجيّدة بالبولنديين الذين تقدّموا بطلب إلى السلطان من أجل عزله -أي "راريش"- عن منصبه. لكن قرار هذه الغزوة لم يُعلن عنه إلا بعد انتهاء التحضيرات للرحلة وتقدم الجيش العثماني حتى وصل إلى مدينة "أَدِرْنَه". ولم تكن الإعدادات فقط لغزو مولدوفا، فكان بَرْبَرُوسْ يستعد للخروج في غزوة بحرية أخرى في تلك الأثناء. وكان حاكم" كوجالي علي"، وحاكم تكّة "خُرّم"، وحاكم صيدا "علي"، وحاكم علائية مصطفى، والجنود التابعون لإمارة جاليبولي يستعدون هم أيضًا للحاق بركب أسطول بَرْبَرُوسْ في رحلته. وقد عيّن السلطانُ حاكم إمارة آيدن "فرهاد" لتولّي شأن العاصمة إسطنبول، وحاكم إمارة صَارُوخَانْ الأمير مصطفى لتولّي شؤون منطقة "إِيجَه"، وحاكم إمارة أَرْضَرُومْ "ذُو الْقَادِرلي محمد خان" لتولّي أمور الحدود الشرقية للدولة، و"رمضان أوغلو" لتولّي شؤون منطقة "آضَنَه" و"إيتشل" الجنوبية المطلة على ساحل البحر الأبيض المتوسط. وفي تلك الأثناء جاء رسول "فلورنسا" وقدّم الهدايا الثمينة إلى البلاط

(٧٦) يانوش زالبوليا: ملك المَجَر بين عامي ١٥٢٦ - ١٥٤٠. (المترجم)

العثماني، وكان معه خطابٌ من حاكم فلورنسا "كوزيمو دي ميديشي (*Cosme de Médicis*)". ولقد امتنّ السلطان كثيرًا لقدوم هذا الرسول، ومنحه مقدارًا محددًا من المال لتلبية احتياجاته. وعندما تحرك السلطان من إسطنبول ووصل إلى أدِرْنَه، أعلن أنه بصدد غزو مولدوفا.

وبينما كان السلطان سليمان في أدِرْنَه، جاءه "ماني (*Mani*)" نجل حاكم ولاية البصرة "مجاميز أوغلو أمير راشد"، وقدّم فروض الطاعة والولاء للسلطان. وجلب معه هدايا قيّمة للسلطان، وأبلغه أن والده أمر بقراءة خطبة الجمعة وسكّ العملة في البصرة باسم السلطان سليمان. وكان السلطان قد منح ولاية البصرة إلى "الأمير راشد"، وأرسل إليه فرمانًا بإدارتها، كما بعث إليه بعلمٍ للدولة العثمانية. ثم تحرّك السلطان من أدِرْنَه نحو مولدوفا يوم ٢٦ تموز/يوليو. وفي تلك الأثناء، وصل إلى أدِرْنَه جنودُ الأناضول الذين انتقلوا إلى شبه جزيرة جاليبولي إلى منطقة الرُّومَلِي، كما التحق بهم أمير الرُّومَلِي "خُسْرَوْ بَاشَا". وبينما كان الجيش العثماني في مكان إقامة السلطان، جاء رسولٌ من الأمير "راريش"، واستقبله السلطان. فأخبره الرسول أن الأمير "راريش" سيذعن مطيعًا لأوامره، فأرسل السلطان أمينَ "كَفَه" "سنان شلبي" يحمل خطابًا برفقة الرسول إلى الأمير "راريش". وقد أخبره السلطان سليمان في هذا الخطاب أنه إنما خرج في هذه الغزوة بسبب فظاظته وهمجيته، مشيرًا إلى أنه ربما يعفو عنه ويرحمه إذا تاب الأمير عن فعلته، وندم وعزم على عدم تكرارها، وأتى إلى إسطنبول ومرّغ وجهه في البلاط السلطاني، فقبل بشروط السلطان. فذهب أمين "كَفَه" سنان شلبي لمقابلة الأمير "راريش" في مدينة "ياش (*Yaş*)"، فبلّغه بأوامر السلطان، إلا أنه رأى أن حاكم مولدوفا قد حشد جنوده لمواجهة السلطان العثماني، فعاد إلى إسطنبول وأخبر السلطان بأن "راريش" مصمم على مجابهته، مما دفع السلطان سليمان للمضي قدمًا في تنفيذ قراره بغزو مولدوفا.

استطاع الجيش العثماني العبور من فوق جسر بنوه عند منطقة "إيساقجي (*Isakçı*)" القريبة من نهر الطُونَة بكافة عدّتهم وعتادهم خلال ٣٠ ساعة. وتمركز

الجنود بشكل منتظم كلٌّ في موقعه بانتظار أوامر السلطان. ووصل السلطان سليمان يوم ١٦ آب/أغسطس إلى جبل "بابا"، وزار ضريح "صاري صالتوك بابا (*Sarı Saltuk Baba*)" الموجود هناك، وخرج إلى الصيد في المنطقة. ثم تقدّم الجيش العثماني في أراضي مولدوفا، حتى رأى ضرورة بناء جسر آخر فوق نهر "بروت (*Prut*)". وكُلِّف نائب الصدر الأعظم "لطفي بَاشَا" ببناء هذا الجسر، فأسند هذا الأخير هذه المهمة إلى المعماري "سنان". ونجح "سنان" في بناء جسرٍ بتصميم رائع ومتين في غضون ١٣ يومًا، وعبر الجيش من فوقه يوم ٣١ آب/أغسطس. وفي تلك الأثناء التي انضم فيها خان القِرْم "صاحب كِيرَايْ" بجنود وأمرائه إلى الجيش العثماني، انضم كذلك ٣٠٠٠ جندي من "سِلَاحْدَارْ" المطرَد من قوة إمارة "الأفلاق" الرومانية. وقد استعان الجيش العثماني بهذه الإضافات في مقدمة الجيش في أعمال فتح الحصون بشكل أكبر. وعندما دخل الجيش العثماني الأراضي المولدوفية، وصل إلى مدينة "فيلتشين" التي يوجد بها قصر الصيد الخاص بالأمير "راريش" الذي أُصيب بدهشة كبيرة فور سماعه نبأ وصول الجيش العثماني. فأدرك حينها أمير مولدوفا أنه لن يستطيع الوقوف أمام الجيش العثماني، فآثر الانسحاب إلى مدينة "فوكشان" برفقة عدد من قواته، واتخذ بعض التدابير الوقائية بها بُغية نصب كمين للجيش العثماني. إلا أنه تراجع عن هذه الفكرة لاحقًا، وفضّل الفرار إلى داخل إقليم "ترانسيلفانيا (*Transilvanya*)". وانسحب بعدها إلى جبل "بوتشيني" في البداية، ثم إلى مدينة "أَرْدَلْ"، وفي ذلك التوقيت كان الجيش العثماني قد دخل مدينة "ياش". أعقب ذلك سيطرة العثمانيين على مدينة "سوتشافا" التي كان يتخذها الأمير "راريش" مقرًا له (٢٠ ربيع الأول ٩٤٥هـ / ١٦ أيلول/سبتمبر ١٥٣٨م)، إذ استولى عليها الجيش العثماني دون قتال.

وما إن دخل السلطان سليمان الأراضي المولدوفية، حتى أعطى الأمان لأهلها، وأمر بتوافد أمرائها ونبلائها وأعيانها ورهبانها لمقابلته. وعليه، فقد جاء إليه جميع الأمراء والنبلاء، وأعربوا عن طاعتهم وإذعانهم له، وأبلغوه بتبعيتهم له. وتم تعيين "ستيفان لاكوستا (*Stefan Lacusta*)" حاكمًا جديدًا على مولدوفا.

وأعطاه السلطان معطفًا من فراء السمور، وقلنسوة، وذيل حصان، وراية، وصكًا لإدارة شؤون البلاد. وينص هذا الصكّ على دفع أمير مولدوفا الضرائب إلى الدولة العثمانية في إسطنبول بنفسه مرة كل عامين، كما يتوجّب عليه طاعة الأوامر الصادرة من السلطان. وقد بسط العثمانيون نفوذهم خلال هذه الغزوة على الأراضي الواقعة بين نهري "بروت (*Prut*)" و"دنيستر (*Diniester*)". وبهذه الطريقة حُوّلت منطقة "بيسارابيا (*Baserabya*)" شرق أوروبا لإمارة عثمانية، إذ عيّن السلطان أميرًا لإدارة شؤون هذه المنطقة. إضافةً إلى ذلك بُنيت قلعة "كيلي (*Kili*)" من جديد بعد أن هُدمت، لتكتسب مدينة "أكيرمان (*Akkirman*)" قوة ومنعة بفضل هذه القلعة. هذا إلى جانب سيطرة العثمانيين على مدينة "تيغينا (*Tighina*)" أو "بيندر (*Bender*)" المحاذية لمجرى نهر "دنيستر (*Diniester*)". وسيلمع نجم هذه المدينة مع مرور الوقت باسم "بيندر". وفرضت السلطات العثمانية حظرًا على أهل مولدوفا ببناء القلاع والحصون على حدود منطقة "بيسارابيا"، وآثر القادة العثمانيون تعيين ٥٠٠ جندي من جنود الإنْكِشَارِيّة لخدمة الأمير "ستيفان (*Stefan*)" كإجراء احترازي ضد أي هجوم محتمل. وعليه، فقد أحكمت الدولة العثمانية قبضتها تقريبًا على المنطقة الواقعة شمال البحر الأسود بالكامل. وصارت هذه المنطقة بمثابة نافذة الطرق التاريخية الموصلة إلى إسطنبول على البحر الأسود. وكانت طرق التجارة القادمة من بحر الشمال تصل إلى إسطنبول عبر هذا المنفذ القائم في هذه المنطقة، حتى إنها كانت تشمل في الوقت نفسه أراضي بولندا. وبعبارة أخرى موجزة، سيطر العثمانيون على سواحل مولدوفا التي كانت تحمل أهمية بالغة بالنسبة لاحتياجات العاصمة إسطنبول من مأكل ومشرب وخلافه، وإحكام السيطرة على منطقة البحر الأسود بأكملها. إذ بسطت الدولة العثمانية نفوذها على الطرق الواصلة بين مدينتي "أكيرمان" و"لفيف (*Lviv*)".

وبعد أن أوجد السلطان سليمان حلًا جذريًا لقضية مولدوفا، وأثناء عبور الجيش العثماني نهر "بروت" سُمح لخان القِرْم "صاحب كِيرَايْ" وقتها بالعودة إلى وطنه. كما أرسلت الدولة العثمانية رسائل تبشّر بالنصر الذي حققه الجيش

إلى كافة الممالك والولايات عبر الرسل والمبعوثين. لكن الأمير الجديد لمولدوفا لم يستطع إحكام سيطرته على الأوضاع في البلاد، كما حدث مع خليفته، فأفضى هذا الواقع لحالة من الفوضى وعدم الاستقرار في مولدوفا، مما سيدفع السلطان سليمان لاستدعاء الأمير "راريش" إلى إسطنبول، وتكليفه بإدارة شؤون ولاية مولدوفا للمرة الثانية (١٥٤١ - ١٥٤٦م). وبينما كان السلطان عائدًا من غزوة مولدوفا، وصل إلى مدينة "يانبولو" حيث أمضى بعضًا من وقته في ممارسة رياضة الصيد، أتاه ابن بَرْبَرُوسْ بالتبنّي ليخبره بالنصر الذي حققه والده في "بريفيزا". ثم انتقل السلطان إلى أَدِرْنَه، وقضى بها فصل الشتاء.

معركة "بريفيزا" البحرية

كانت النشاطات التي يزاولها "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين بَاشَا" في البحرين الأبيض المتوسط و"إِيجَه" باسم الدولة العثمانية تثير حنق الإمبراطور "كَارْل الخامس" أكثر من أي وقت مضى. ولم يكن الإمبراطور وحده، بل كان البابا هو أيضًا يسارع في عقد تحالفات ضد الأتراك العثمانيين، حتى إن هذا الأخير سعى في الإصلاح بين "كَارْل الخامس" و"فرنسوا الأول". ومن جهة أخرى، كان حكام البندقية يعقدون تحالفات سرية ضد الدولة العثمانية، على الرغم من تمتعهم بصداقة مع الدولة العثمانية منذ فترة طويلة، كما كانوا يعدّون العدّة لقتالهم. وفي نهاية المطاف، عقدت جميع تلك الأطراف العزم على تجميع أساطيلها عند ساحل جزيرة "كُورْفُو" اليونانية للرد على آخر غزوة خرج فيها بَرْبَرُوسْ إلى جزر بحر "إِيجَه". وقد تجمع عند جزيرة "كُورْفُو" عددٌ كبير من السفن ذات التجهيزات المتفوقة من الأساطيل الإسبانية، والبرتغالية، والبندقية، والبابوية. وقد اتفق هؤلاء المتحالفون في معاهدتهم على فكرتين رئيسيتين، إذ كانت الفكرة الأولى هي رغبة الإمبراطور "كَارْل الخامس" في الاستيلاء على الجزائر التي تمثّل له قاعدة فعّاليات القرصنة، وأما الفكرة الثانية كانت عزم حكام البندقية على استعادة الجزر التي فتحها العثمانيون حديثًا.



معركة "بريفيزا (*Preveze*)" البحرية (٢٧ سبتمبر ١٥٣٨م)

وصلت سفن البندقية أولًا إلى جزيرة "كُورْفُو" مكان تجمّع الأسطول المسيحي. وبعد ذلك بفترة، قدِمت سفن الأسطول البابوي. وقد شعر قائد الأسطول البابوي الأميرال "جريمالدي" بالملل جراء انتظار السفن الإمبراطورية التي كانت تمثل ألمانيا وإسبانيا والنمسا، فقام بمهاجمة قلعة "بريفيزا" الواقعة عند مضيق "ناردا" جنوب مدينة "يابنية" اليونانية بأسطوله المكون من ٨٣ قطعة بحرية. وصدّت قواتُ "حسين شاه بَكْ" حاكم ولاية "كَارْلِي إِيلِي (*Karlıili*)" التي كانت تتبعها "بريفيزا" هجومَ الأميرال "جريمالدي". وبينما كان "حسين شاه بَكْ" يحاول صد هجوم العدو بقواته، كان يبعث الرسل إلى السلطان سليمان الذي كان يغزو مولدوفا لإبلاغه بهذه التطورات. وأخذ "جريمالدي" في قصف القلعة بالمدافع من البحر، كما أنزل جنوده إلى سواحل المدينة. لكن "حسين شاه بَكْ" قام بهجوم مباغت من داخل القلعة، واستطاع خطف هؤلاء الجنود. فلجأ "جريمالدي (*Grimaldi*)" إلى تشديد القصف على القلعة من البحر، وأنزل جنودًا آخرين إلى البرّ، إلا أنه لم ينجح في الاستيلاء على المدينة، إذ كبّده الجيش العثماني خسائر كبيرة. واضطر "جريمالدي" في النهاية للعودة إلى جزيرة "كُورْفُو" عندما سمع أن الأسطول العثماني في طريقه إلى "بريفيزا".

لقد وصل نبأ هجوم العدو على "بريفيزا" إلى "بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين بَاشَا" بينما كان في جزيرة "كوس" اليونانية. فأرسل أسطولًا استكشافيًّا بقيادة "تُورْجُوتْجَا (*Turgudca*)" لمعرفة المزيد من المعلومات عن قوات العدو، فصادف هذا الأسطولُ سفن الأسطول النصراني المكون من ٤٠ سفينة في البحر، فعاد مسرعًا وأبلغ بَرْبَرُوسْ أن أسطول العدو تجمّع عند سواحل "بريفيزا". وكان بَرْبَرُوسْ يحصل على العديد من الأنباء والمعلومات حول أسطول العدو من تُورْجُوتْجَا (*Turgutça*) (الرئيس تُورْجُوتْ (*Turgut Reis*))، ومن غيره من الرسل بشكل مستمر. حتى إنه علم بالهجوم الذي شنّه العدو على "بريفيزا" بالقرب من "كورون"، وأولى اهتمامًا بشكل زائد بالحملات الاستطلاعية للوقوف على مستجدات الأوضاع في هذا الشأن. وأرسل أربع سفن سريعًا إلى سواحل إيطاليا، فعادوا إلى بَرْبَرُوسْ وأبلغوه بتشكُّل أسطول "أندريا دوريا" من ٥٥ سفينة كبيرة، و٩٠ سفينة صغيرة، كما استولوا على قارب صغير وسفينة شحن أثناء إبحارهما خلف الأسطول الإيطالي. فعلم منهم بَرْبَرُوسْ أن أسطول التحالف النصراني في طريقه لتنظيم هجمة مشتركة، مما جعله يمتلك معلومات مفصّلة في هذا الصدد.

تحرّك بَرْبَرُوسْ على رأس أسطوله إلى مدينة "بريفيزا"، وكان هذا الأسطول مكونًا من ١٢٠ سفينة، ٢٠ منها مملوكة للقراصنة، وكانت هذه السفن من النوع الذي كان يضمّ الأشرعة والمجاديف في آن واحد، وضمّت أنواع القوادس الصغيرة والكبيرة، والفرقاطات. ومن الصعوبة إعطاء رقم معين يشير إلى عدد سفن التحالف التي كانت تحت قيادة "أندريا دوريا"، كما أن المصادر المحلية والأجنبية تعطي أعدادًا مختلفة في هذا الشأن. فعلى سبيل المثال يروي المؤرخ النمساوي البارون "فون هامر" أن أسطول "دوريا" كان مكونًا من ١٦٠ قادسًا. أما المصادر التاريخية التركية، فيشير مثلًا المؤرخ العثماني "كاتب شلبي" إلى أن أسطول "دوريا" كان يتشكّل من ٥٢ قادسًا إسبانيًا، و٧٠ قادسًا بندقيًّا، و٣٠ قادسًا بابويًّا، و١٠ قوادس برتغالية، أي ما مجموعه ١٦٢ قادسًا، بالإضافة إلى ١٤٠ قطعة بحرية أخرى، ما يجعل إجمالي عدد قطع الأسطول يتخطّى

٣٠٠ سفينة من طرازات مختلفة. كما يرتفع هذا العدد إلى ٦٠٠ سفينة إذا أضفنا السفن المتطوعة الأخرى، بحسب ما يرويه "شلبي". فيما يروي المؤرخ العثماني الآخر "جلال زاده" أن أسطول التحالف النصراني كان مكونًا من ٣٠٠ سفينة كبيرة. وتذكر مصادر أخرى أن تعداد الجنود العثمانيين الذين كانوا على متن الأسطول ٨ آلاف جندي، منهم ٣ آلاف من الإِنْكِشَارِيّة. وأما أسطول "دوريا" فكان يضمّ ٢٥٠٠ جندي مدفعية، بالإضافة إلى عدد كبير من الجنود. وكان الأسطول العثماني أضعف من أسطول العدو من حيث عدد السفن والقوة العددية للجنود. وعندما وصل بَرْبَرُوسْ إلى "بريفيزا" استعدادًا لمنازلة أسطول العدو، وصل "دوريا" إلى سواحل المدينة يوم ٢٥ أيلول/سبتمبر ١٥٣٨م. وقد رسا أسطول "دوريا" على بعد ميلَيْن من سواحل "بريفيزا". وفي مقابل ذلك، كان الأسطول العثماني راسيًا في خليج "آرتا"(٧٧). وقبل بدء المعركة، جمع بَرْبَرُوسْ قادة سفن أسطوله، وتشاور معهم حول الإجراءات التي سيتخذونها أثناء القتال. وقد أوصى بعض الأمراء بَرْبَرُوسْ بإنزال عدد من الجنود والمدافع إلى ساحل المدينة للتمكّن من مواجهة الكثرة العددية لقوات العدو. فلم يعرب بَرْبَرُوسْ في البداية عن إعجابه بهذه الفكرة، إلا أنه سمع بعد ذلك بمحاولات إنزال العدو لقواته إلى البرّ، فأسرع إلى إنزال جنوده إلى الساحل، واستطاع وقف إنزال جنود العدو إلى الشاطئ عبر قصفه سفن الأسطول بوابل من قذائف المدفعية.

وعقب ذلك أخذت قوات التحالف بقصف ساحل المدينة بالمدفعية. لكن بعض قادة الأسطول العثماني الذين كان من بينهم "مراد أغا"، و"تُورْجُوتْجَا"، و"الرئيس كُوزَلْجَه محمد" وآخرون بادروا إلى إجبار سفن العدو على التراجع والانسحاب عن طريق الخروج بسفنهم أمام أسطول العدو.

---

(٧٧) خليج آرتا: هو خليج يقع في شمال غرب اليونان. تطل مدينة بريفيزا على الجهة الشمالية من الخليج. (المترجم)



معركة "بريفيزا" البحرية

وشوهدت بعض قوات "أندريا دوريا" وهي تهاجم السفن العثمانية الراسية في "بريفيزا". فقد وصلت قوات العدو إلى مضيق "بريفيزا"، وفتحت النيران على الأسطول العثماني. فأمر بَرْبَرُوسْ بقرع الطبول، ورفع الراية، والتحرّك إلى الأمام. وتقدّم الأسطول العثماني حتى مسافة ٦ أميال، ومن ثم رسا. وانتظر حتى وصلت سائر السفن الأخرى لتنضم إليه. وعندما انضمت هذه السفن إلى أسطوله، شرع في مهاجمة العدو بقصفه بالمدفعية. ومع حلول الظلام، بدأت سفن التحالف في الانسحاب من المنطقة. كما عاد بَرْبَرُوسْ إلى الخليج، وجمع مجلس الحرب لمناقشة الأمور المقرر إنجازها في المستقبل. وقد تحرك "دوريا" فيما بعد للهجوم على مدينة "ليبانت" لإجبار بَرْبَرُوسْ على الخروج من "بريفيزا" لقتاله، وذلك بموجب القرارات التي اتخذها مجلس الحرب. وانطلق أسطول التحالف بقيادة "دوريا" في ساعات الصباح الباكر من يوم ٢٧ أيلول/سبتمبر ١٥٣٨م. وفي صبيحة اليوم ذاته، أبحر الأسطول العثماني صوب جزيرة "كُورْفُو". وأثناء إبحارهم، كلّف بَرْبَرُوسْ بعض رجاله للصعود إلى صوارِي السفن لمراقبة الأوضاع من على بعد، فشاهد أولئك المراقبون صوارِي بعض سفن العدو الراسية على مقربة من جزيرة "ليفكادا". وعليه، فطن بَرْبَرُوسْ لوجود أسطول "دوريا" في هذه المنطقة، فحوّل وجهة أسطوله نحو الجنوب. وعندما أشرقت الشمس، أدرك "دوريا" أن الأسطول العثماني يبحر خلفه.

كانت الرياح تهبّ في صالح أسطول التحالف النصراني في ساعات الصباح الأولى. حتّى إن ذلك أرهق البحارة الأتراك كثيرًا. لكن مع سطوع الشمس، انقطع هبوب الرياح، لتتوقف حركة سفن العدو الشراعية الكبيرة. وفي تلك الأثناء، بدأ بَرْبَرُوسْ في مهاجمة أسطول العدو، مما أدهش "دوريا" وأصابه بالحيرة، لدرجة أنه قضى ساعات يفكّر بتردد بالغ في دخول هذه المعركة ضد الأسطول العثماني. وبعد مدة طويلة من التفكير، قرر دخول المعركة. والتقى الأسطولان على بعد ٣-٤ أميال غرب ساحل جزيرة "ليفكادا". وقد اتخذ الأسطول العثماني وضع الهلال، إذ كان بَرْبَرُوسْ في المنتصف، و"الرئيس صالح" عن يمينه، و"الرئيس سيدي علي" عن يساره. وفي الخلف كانت سفن "الرئيس تورجوت" المتطوعة تقف على الجانبين كاحتياطي لسفن الأسطول. وأما أسطول التحالف النصراني فقد نظّم نفسه بحيث كانت السفن الشراعية الكبيرة في المقدمة، تليها القوادس ذات المجاديف موزعة على ثلاث مجموعات، ثم السفن ذات المجاديف الصغيرة، وفي المؤخرة جاءت السفن من النوع الذي كان يضمّ الأشرعة والمجاديف في آن واحد. وكان "أندريا دوريا" يتمركز في صف القوادس في الصف الثاني، إذ كان ينوي اتخاذ السفن الكبيرة التي كانت في المقدمة كخندق يحتمي به لدى مهاجمة الأسطول العثماني.

لم يستسغ بَرْبَرُوسْ فكرة الهجوم على سفن العدو والالتحام معها وجهًا لوجه، لعلمه بالتفوق العددي الذي يتمتع به أسطول العدو، فبدأ في مهاجمتهم بقصف مدفعي عن بُعد. وقد أحدثت المدفعية التركية بعيدة المدى خسائر كبيرة في صفوف سفن أسطول التحالف. وفي مقابل ذلك، لم تستطع قذائف مدافع العدو -الأقصر من حيث المدى- الوصول إلى سفن الأسطول العثماني. فبادر "دوريا" يرافقه الأميرال البندقي "كابيلو (*Capello*)" إلى تطويق الأسطول العثماني من الخلف مستقلًا القوادس التي كانت في الصف الثاني من أسطوله، ورغب في جعل الأسطول العثماني بين شقي الرحى عن طريق قصفه من الخلف أيضًا. لكنه فشل في تنفيذ هذه الخطة بسبب اقترابه من مدى قذائف المدافع العثمانية التي لم تسمح له بذلك. وعمد "دوريا" إلى محاولة

تنفيذ هـذا المخطط مرة ثانيـة، إلا أن بَرْبَرُوسْ فطن إلى هـذا المخطط، واتخذ التدابير اللازمة لمواجهته. وبينما كان "دوريا" يرغب في تطويق سفن الأسطول العثماني، عمد بَرْبَرُوسْ إلى تغيير اتجاه سفنه، وضرْب العدو من الجنب. وعندما حـاول "دوريـا" إجراء مناورة عكسـية، تحركَ الأسطول العثماني فـي المقابل، ولـم يُعطِ فرصة لأسـطول "دوريا" لمهاجمته. لكن بَرْبَـرُوسْ لم يكتفِ بالتدابير التـي اتخذهـا في مواجهة قيام أسـطول "دوريا" بالمناورة متخذًا السـفن الكبرى التـي كانـت في مقدمته كخندق للاحتماء به. ولهذا السـبب، قـرر القيام بهجوم مباغـت لـم يكـن "دوريا" يتوقعـه. فهجم فجـأةً على قـوادس أسـطول "دوريا" التي كانت في المقدمة، وأحدث شـقًّا في صفوفها، وبدأ في الاشـتباك مـع تلك السفن. كما بادرت القوات العثمانية الاحتياطية إلى محاولة تطويق أسطول العدو من جديد. ولقد أذهل هذا الهجوم الذي قام به بَرْبَرُوسْ قائد أسـطول التحالف "دوريا" وسـائر القادة الآخرين بشـكل كبير. ولهذا السـبب، بدأت سـفن العدو فـي التصـادم ببعضهـا البعـض. حتـى إن معظمهـا ركب فـوق بعضـه البعض، ممـا أحـدث خسـائر فادحة بيـن صفوفها. وقـد أصـدر "دوريا" أمرًا لأسـطوله بالانسـحاب بعدمـا أدرك أن الأمور بدأت فـي التدهور في مقابل حركة التطويق التـي همّـت لتنفيذها القـوات الاحتياطيـة العثمانية. إلا أن هبوب رياح شـديدة فـي تلـك الأثناء أسـفر عن إصابة سـفن أسـطوله بحالة مـن التخبّـط والحيرة. لكـن علـى مـا يبدو أن هذا الوضـع سـيكون في الوقت نفسـه سـببًا في نجاتهم من بين يد الأسطول العثماني. ذلك لأن سفن أسطول العدو الشراعية استدارت حتـى جعلـت الرياح تهب من خلفها، وانطلقت مسـرعة حتـى هربت من ميدان المعركة. حتى إن "دوريا" الذي كان يسـتقلّ السـفينة التي تحمل راية التحالف، أطفـأ مصبـاح السـفينة، وتـوارى عـن الأنظـار هاربًا في ظلمـة الليـل الحالكة. ومَن نجى مِن أسطول التحالف توجّه صوب جزيرة "كُورْفُو".

وبهـذه الطريقـة أدّت المنـاورات والمخططـات الذكيـة التي قـام بتنفيذها بَرْبَرُوسْ في النهاية إلى انسحاب "دوريا" من ميدان القتال بعدما شعر بأن عاقبته سـتكون سـيئة إذا ما بقي فيه. وإن إسـتراتيجية شـقّ الصف التي طبّقها بَرْبَرُوسْ

في هـذه المعركة سيلجأ إليها العديد من الأميرالات المشاهير في المستقبل للاستفادة منها في معاركهم. ولقد فقد أسطول التحالف في هذه المعركة ٦٠ سفينة، وسقط من قواته ٢٧٧٥ جنديًا أسيرًا في أيدي العثمانيين. وفي مقابل ذلك، لم تتضرر أية سفينة من الأسطول العثماني، بالرغم من فقدانه ٨٠٠ جندي بين شهيد وأسير. وقد منعت ظلمة الليل الحالكة والرياح الشديدة أي محاولة لتعقّب سفن أسطول "دوريا" الذي آثر الهروب مستفيدًا من ظلمة الليل. إلا أن نصر العثمانيين كان محققًا في هذه المعركة، ذلك لأن "دوريا" فرّ هاربًا بسرعة كبيرة، وتم إبلاغ السلطان بهذه الأنباء السارّة. وأرسل بَرْبَرُوسْ ابنه بالتبنّي "حسن أغا" بصحبة اثنين من القباطنة النصارى الذين أُسروا خلال المعركة إلى السلطان لإخباره بنبأ النصر. وتلقّى السلطان سليمان هذا النبأ المفرح عندما كان في مدينة "يانبولو (*Yanbolu*)" عائدًا من غزوة مولدوفا، إذ استمع إلى رسالة النصر التي بعثها بَرْبَرُوسْ وهو واقف على قدميه، وأمر بإعلان هذا النصر في جميع الولايات العثمانية. كما أصدر السلطان أوامر بمنح القائد بَرْبَرُوسْ مائة ألف قطعة نقود فضية كمكافأة له على هذا الإنجاز. وبعد أن مكث بَرْبَرُوسْ عند سواحل "بريفيزا" لمدة تراوحت بين ١٥-٢٠ يومًا، استولى على جزيرة "كيفالونيا"، ثم انطلق من سواحل اليونان الغربية إلى إسطنبول لقضاء فصل الشتاء بها.

سفر "سليمان بَاشَا الخادم" إلى الهند

لقد شهد عام ١٥٣٨م ثلاث غزوات كبيرة وهامة للغاية بالنسبة للسلطان سليمان. فعندما عاد من غزوة مولدوفا إلى العاصمة إسطنبول، تسلّم تقريرًا حول أنشطة الأسطول العثماني المتوجّه صوب الهند في ذلك الوقت. فقد وجّه البرتغاليون ضربة قاصمة لتجارة الهند، وأضروا بتجارة التوابل المتوجهة صوب البحر الأبيض المتوسط، كما سعوا لتنظيم هجمات على المدن الإسلامية المقدسة منذ زمن المماليك (مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة)، وحاولوا بسط سيطرتهم على مياه البحر الأحمر. وكان البحار

البرتغالي "بارثولوميو دياز" قد نجح في الدوران حول جنوب قارة إفريقيا، واكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح. وتعقّب الطريق الذي اكتشفه "دياز (*Dias*)" بحارٌ برتغالي آخر يُدعى "فاسكو دا جاما (*Vasco de Gama*)" عام ١٤٩٨م، واستطاع الوصول إلى سواحل الهند. ويمكننا سرد بعض الأسباب التي دفعت البرتغاليين إلى خوض مغامرة كهذه. وعلى الرغم من عدم وجود معلومات دقيقة حول هذا الصدد، فإن المؤرخ الإنجليزي "سي. بوكسر (*C. Boxer*)" يرى أن الدافع الذي جعل البرتغاليين يقومون بهذه المغامرة ناجمٌ عن عوامل دينية واقتصادية وإستراتيجية، إذ يمكننا تلخيص هذه العوامل على النحو التالي:

- الروح الصليبية في مواجهة المسلمين.
- الرغبة في الوصول إلى الثروة الذهبية التي تتمتع بها دولة "غينيا (*Guinea*)" في إفريقيا.
- التطلّع للعثور على الكاهن "يوحنّا" الأسطوري الذي يمثّل الديانة النصرانية في الشرق.
- الرغبة في اكتشاف منشأ تجارة التوابل والبهارات القادمة من الشرق.

حتى إنه عندما وصل "فاسكو دا جاما" إلى الهند عام ١٤٨٩م، كانت أول كلمة تلفّظ بها هي:

"جئنا لاكتشاف النصارى والتوابل!".

وعليه، فقد بادر البرتغاليون إلى الوصول إلى سواحل الهند للمشاركة في تقاسم ثروات قارة آسيا، ونشر الديانة النصرانية بها. وبدؤوا على الفور في بسط نفوذهم على السواحل الهندية. وبذل "فاسكو دا جاما" جهدًا حثيثًا من أجل تحقيق ذلك الهدف في رحلته الثانية التي قام بها إلى الهند عام ١٥٠٢م. وأما من أسّس المستعمرات البرتغالية في الهند بعد "فاسكو دا جاما" فهو "ألفونسو دي ألبوكيرك (*Alphonse d›Albuquerque*)". ففي عهد هذا الأخير

استطاع البرتغاليون الاستيلاء على ولاية "جوا" الواقعة غرب الهند. حتى إنهم بسطوا سيطرتهم على المناطق الواقعة بين البحر الأحمر في الغرب وسواحل إندونيسيا في الشرق. ولقد شكّل إنشاء البرتغاليين مستعمرات لأنفسهم في الهند خطرًا داهمًا على البحارة المماليك والعرب والهنود الذين كانوا يعملون في مياه البحر الأحمر والمحيط الهندي، كما صارت هذه الوضعية غير مريحة في الوقت نفسه بالنسبة لحكام الدول المسلمة في هذه المنطقة، إذ تسببت سيطرة البرتغاليين على المناطق الحيوية من الناحية العسكرية والتجارية في هذه المنطقة في زعزعة استقرار هذه الدول على كافة المستويات. أضف إلى ذلك استيلاء البرتغاليين على جزيرة "سُقطرى (*Sukatra*)" اليمنية القريبة من خليج عدن، كما سيطروا على مدينة "هُرمز" الإيرانية التي تعتبر من أهم المدن المطلة على الخليج العربي. وبهذه الطريقة بسطوا نفوذهم على المناطق الهامة التي تعبر منها بضائع شرق آسيا إلى البحر الأبيض المتوسط (١٥١٥م). ذلك لأن التجارة القادمة من شرق آسيا إلى أوروبا كانت تعبر من طريق عبر ميناء الإسكندرية مرورًا بطريق عدن -جدة- السويس، وعبر مدينة حلب وميناء طرابلس الشام مرورًا بمدن هُرمز - البصرة، أي الموانئ التي كانت تخضع لسيطرة المماليك. فكانت البضائع القادمة من الهند وسائر بلدان شرق آسيا تمرّ بهذه الطرق التي أُطلق عليها اسم "طريق البهارات" عبورًا بالموانئ المذكورة، ومن ثم تُنقل بعدها إلى القارة الأوروبية. ولهذا السبب، كان المماليك يكسبون أموالًا طائلة من ضرائب هذه البضائع التي كانت تمر من المدن والموانئ الخاضعة لحكمهم. كما أن التجار العرب كانوا يحصلون على أموال عظيمة من وراء هذه التجارة. أما الآن فإن سيطرة البرتغاليين على الموانئ التي تعبر منها هذه التجارة المهمة كلّف المماليك خسائر كبيرة، مما أدّى في نهاية المطاف إلى تراجع موارد الخزانة المصرية، ومعاناة التجار العرب من ضوائق مالية عصيبة.

على الرغم من محاولة المماليك للتصدي لهجمات البرتغاليين، إلا أنهم لم يفلحوا في مواصلة هذا التصدي بشكل مؤثر. ولجأ السلطان المملوكي "قنصوه الغوري (*Kanısav Gavri*)" إلى السلطان العثماني "بايزيد الثاني"

يستنجد به لمواجهة خطر البرتغاليين، وطلب منه إرسال بحّارة الأناضول الذين ذاع صيتهم في كافة أرجاء البحر المتوسط، لمساعدته في القضاء على توغُّل البرتغاليين. كما طلب منه إمداده بمستلزمات بناء السفن مثل الأخشاب والحديد والحبال، وبعض الأسلحة النارية مثل المدافع والبارود لمواجهة البرتغاليين. فاستجاب السلطان "بايزيد الثاني" فورًا لهذه المطالب، وأرسل قافلة مساعدات إلى مصر.

ويروي المؤرخ المملوكي "ابن إياس" معلومات قيّمة للغاية حول ١٠٠٠ بحّار تركي كانوا تحت قيادة "الرئيس سلمان" بهذه المناسبة. فقد نجح "الرئيس سلمان" في تشكيل أسطول بحري مؤلف من ٢٠ سفينة بالتعاون مع أمير جدة حسين بَكْ. وانطلق هذا الأسطول بقيادة الاثنين لصد هجوم البرتغاليين عام ١٥١٥م، إلا أنهم تعرّضوا للهزيمة. لكنهما لم يستسلما لهذه الهزيمة، وانطلقا مجددًا في العام التالي صوب مدينة عدن اليمنية بأسطول مكون من ٢٢ سفينة وقادوسيْن اثنين. وهُزما مرة أخرى في هذه الغزوة، وأُصيب "الرئيس سلمان" ونُقل إلى مدينة جدة، ولما وصل إلى هناك جاءه نبأ فتح السلطان سليم الأول لمصر.

بعد أن فتح السلطان العثماني "سليم الأول" مصر عام ١٥١٧م، جاءته مفاتيح مكة المكرمة التي أرسله أميرها. وفي مقابل ذلك بعث إليه السلطان فرمانًا وبعض الهدايا الأخرى. كما أمر بضرورة قتْل أمير جدة حسين بَكْ لانتشار ادّعاءات بحقه تشير إلى الاستيلاء على العديد من البضائع بغير وجه حق. ولقد استدعى السلطان "الرئيس سلمان" المتواجد في جدة، لكن هذا الأخير أرسل أحد رجاله إلى السلطان برسالة يشرح فيها أسباب عدم مقدرته على مغادرة جدة في الوقت الحالي. وسرد "سلمان" في هذه الرسالة بعض الموضوعات التي كان أهمها أن مدينة جدة يوجد بها ٦٠٠ بحّار من العباد والبحارة والبربر، وأن البرتغاليين قدِموا إلى مضيق باب المندب بأسطول مكون من ٤٥ سفينة وبدؤوا في إنشاء قلعة هناك، بحسب الأخبار الواردة من اليمن، وأنهم -أي البرتغاليين- وصلوا إلى ميناء جدة يوم ٢٥ آذار/مارس ١٥١٧م بأسطول مؤلف

من ٣٠ قطعة بحرية، وأحرقوا ستة قوادس وقاربيْن وأربع سفن، لكن المدافعين عن المدينة لم يسمحوا لهم بإنزال جنودهم إلى الساحل، وطردوهم بقصف سفنهم بالقذائف المدفعية. وكتب "سلمان" كذلك أن حاكم عدن شجّع البرتغاليين على مهاجمة جدة بعد أن أوهمهم أنها خاوية لا يوجد بها أحدٌ. ليُفهم من ذلك أن البرتغاليين إنما حاولوا تشكيل قاعدة لهم في المنطقة لبسط نفوذهم على مياه البحر الأحمر. ولقد شكّلت هذه المواجهة بداية الصراع العثماني - البرتغالي في هذه البحار.

عقب ذلك، توجّه "الرئيس سلمان" إلى مصر، وقبّل يد السلطان سليم الأول، ومن ثم عاد إلى إسطنبول. وعاد بعدها بفترة وجيزة إلى مصر أثناء ولاية أحمد بَاشَا، وحاول إحكام السيطرة العثمانية على اليمن. وفي تلك الأثناء، أعلن أحمد بَاشَا عن تمرده على الدولة العثمانية، مما استدعى قدوم الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا إلى مصر، فهمّ "الرئيس سلمان" للذهاب إلى مصر. وحصل منه إبراهيم بَاشَا حينها على معلومات حول أحوال أهل اليمن. وتحرّك بعدها "الرئيس سلمان" عام ١٥٢٥م إلى اليمن على رأس أسطول جهّزه أمير جدة الجديد حسين بَكْ في مدينة السويس من ٢٠ قادوسًا. وكتب تقريرًا يتناول أحوال الموانئ المطلة على البحر الأحمر، والقلاع التي أنشأها البرتغاليون في الهند، والأوضاع التجارية لعدد من المدن مثل "سومطرة (*Sumatra*)" الإندونيسية و"ملاكا (*Malaka*)" الماليزية. وتُظهر هذه الوثيقة أن العثمانيين عزموا في ذلك التوقيت على الاهتمام بأحوال البحر الأحمر، والحبشة، والمحيط الهندي بشكل جدّي. وتتمتع الرحلة التي قام بها الأسطول العثماني بقيادة "الرئيس سلمان" إلى عدن بأهمية كبيرة في التاريخ العثماني، نظرًا لأنها تعتبر أول رحلة يقوم بها الأسطول إلى مياه المحيط الهندي.

لقد بدأت الدولة العثمانية -بعد ضمّ مصر إلى رقعتها- في الانفتاح تدريجيًّا على البحر الأحمر والمحيط الهندي. واستطاع العثمانيون إفشال مخططات البرتغاليين الذين سعوا بشتّى الطرق لتأسيس مراكز تجارية ذات أهمية في البحر

الأحمر الذي يعتبر من أهم الطرق التي تعبر منها تجارة البهارات، إذ شكّلوا صخرةً صمّاء تكسرت فوقها طموحات البرتغاليين، لما كانوا يتمتعون به من قوة وصلابة أكثر من أسلافهم المماليك. وهذا أيضًا يُعدُّ بمثابة مؤشر جليّ على فشل البرتغاليين في السيطرة على طريق التجارة الشرقية بمعنى الكلمة. وفي الوقت الذي بدأ العثمانيون فيه بالاستقرار في مصر، كان البرتغاليون أصحاب الكلمة العليا في المحيطين الهندي والأطلسي. وعلى الرغم من هجمات البرتغاليين وسيطرتهم على هذه المنطقة، كان التجار المسلمون يحاولون نقل بضائعهم عبر الطريق الموصلة بين الهند والبحر الأحمر بين الحين والآخر. ولقد تسبب الحصار الذي فرضه البرتغاليون على سواحل البحر الأحمر في ارتفاع أسعار التوابل في مدينتي القاهرة والإسكندرية المصريتين، وبيروت اللبنانية مع مرور الوقت. هذا بالإضافة إلى أن قافلة بحرية وصلت من الهند إلى مصر عام ١٥١٨م، واستطاعت جلب القليل من التوابل. ويكتب الرحّالة "ليو الإفريقي (*Leo Africanus*)" الذي زار مصر عقب الفتح العثماني، أن مصر في ذلك الوقت لم تكن تشهد أي أعمال تجارية، والسبب في ذلك اكتشاف البرتغاليين طريق رأس الرجاء الصالح، ونقلهم كافة الأنشطة التجارية عبر هذا الطريق. ولهذا السبب، كان الهدف الرئيسي من الإدارة التي رغب العثمانيون في ترسيخها في مصر هو إعادة إحياء الطرق التجارية الموصلة إلى الهند، إذ إن جزءًا لا بأس منه من دخل الخزينة المصرية كان يأتي من الإيرادات التي تُدرّها تجارة التوابل القادمة من الهند، بحيث ستلعب مصر دورًا فعّالًا في المستقبل القريب لدعم الاقتصاد العثماني. وبطبيعة الحال فإن تأمين هذا الطريق وإحياء الأنشطة التجارية في مصر كان يحتّم على الدولة العثمانية بناء أسطول قوي في السويس للتصدي لنفوذ البرتغاليين. كما أسس الصدر الأعظم إبراهيم بَاشَا أثناء تواجده في مصر قاعدة بحرية مركزها السويس (١٥٢٥م). وقد كانت هذه الخطوة أولى الخطوات الهامة التي أقدمت عليها الإدارة العثمانية لإثبات قوتها في المنطقة، وإكساب موانئ البحر المتوسط حيويتها بالتجارة القادمة من الشرق من جديد. وفي تلك الأثناء، عيّن إبراهيم بَاشَا وَالِي الشام "سليمان بَاشَا الخادم" واليًا على مصر.

لقد نجح سليمان بَاشَا في توطيد الأمن في مصر بإدارته الحكيمة للأمور عقب تعيينه واليًا على البلاد، وأولى اهتمامًا كبيرًا برِفعة مصر وتطويرها. كما اهتم كثيرًا بالفعّاليات التجارية في البحر الأحمر ومع الهند، بحيث لعبت أوامر السلطان سليمان دورًا كبيرًا في تنفيذه لهذه الأمور. وعندما نما إلى مسامع السلطان أن البابا يبارك مخططات البرتغاليين لغزو الممالك الآسيوية ويشجّعها، أرسل أوامر إلى سليمان بَاشَا بتجهيز أسطول بحري، آخذًا بعين الاعتبار التطورات المستقبلية. فبدأ سليمان بَاشَا في إنشاء سفن ذلك الأسطول في مدينة السويس. كما بعث خطابًا إلى القائد البحري بَرْبَرُوسْ طلب منه تحميل مستلزمات بناء السفن على ٢٠ سفينة، وجَلبْها إلى السويس. وكانت المدافع من بين أكثر الأشياء لفتًا للانتباه في هذه الطلبات. وما إن وصلت هذه المستلزمات إلى السويس، حتى بدؤوا في إنشاء ٧٦ قطعة بحرية مختلفة الأحجام، وتمت تقويتها بالمدافع اللازمة. وأثناء غزو السلطان سليمان لبغداد، أُسندت مهمة أخرى إلى "سليمان بَاشَا الخادم"، وعُيّن مكانه حسين بَاشَا. وأسفر هذا التغيير في المواقع عن تأجيل الغزوة المحتملة إلى الهند لبعض الوقت. لقد طلبت بعض الحكومات المسلمة في الهند مثل "جوجارات (*Gücerat*)" و"كلكتا" مساعدة العثمانيين للتصدي لهجمات البرتغاليين. فانتهزت الإدارة العثمانية هذه الفرصة للعب أدوار مهمة في المحيط الهندي، لا سيما بعد أن فتحت مصر وأخضعتها لسيطرتها. وفي أعقاب ضمّ بغداد إلى حظيرة الدولة العثمانية أثناء غزوة العراقيْن التي قام بها السلطان سليمان، عيّن السلطانُ "سليمان بَاشَا الخادم" واليًا على مصر للمرة الثانية. وتحرّك سليمان بَاشَا إلى مدينة "جوجارات" الهندية يرافقه أسطول بحري أُنشئ في ترسانة السويس تحت إشراف مهندسين من "جنوة (*Cenova*)" متخصصين في هذا الشأن. وبينما كان الأسطول المصري في طريقه نحو الإبحار في البحر الأحمر بتاريخ ٢٢ حزيران/يونيو ١٥٣٨م، كان السلطان سليمان خرج في غزوة مولدوفا، وكان بَرْبَرُوسْ خَيْرَ الدين في طريقه صوب "بريفيزا". ويعتبر هذا المشهد من أجمل الأمثلة الدالة على عظمة الدولة العثمانية وقوتها في ذلك الوقت.

كان الأسطول العثماني الذي يقوده "سليمان بَاشَا الخادم" يمتلك مدافع كبيرة قادرة على حصار المدن. وكانت سفن أسطوله تضم على متنها ٩ آلاف شخص، من بينهم ألفا جنديّ من الإنْكِشَارِيّة. ووصل الأسطول إلى سواحل مدينة عدن. وكانت المدينة التي تتمتع بأهمية إستراتيجية بالغة، يحكمها في ذلك التوقيت "عامر بن داود" وهو من "الدولة الطاهرية"(٧٨) اليمنية. ولقد طلب "عامر بن داود" المساعدة من "سليمان بَاشَا الخادم"، نظرًا لما كان يعيشه من اختلاف في وجهات النظر مع الإمام "شرف الدين" الذي كان من الأسرة الزيدية التي تحكم اليمن. وقد علم سليمان بَاشَا بهذا الطلب عندما وصل إلى جزيرة "كمران"(٧٩)، فرسا بأسطوله عند سواحل مدينة عدن يوم ٢٧ تموز/يوليو ١٥٣٨م من دون أن يردّ على "عامر بن داود" بشيء. وعمد إلى إلقاء القبض على حاكم عدن وإعدامه، وعليه فقد انتقلت السيادة في هذه المدينة إلى الدولة العثمانية. وعيّن سليمان بَاشَا شخصًا يُدعى "برهام (*Behram*) بَكْ" حاكمًا على عدن، وترك معه ٥٠٠ جنديّ و٢٠ مدفعيًا لحماية المدينة. عقب ذلك خرجت عدن عن سيطرة الدولة العثمانية، إلى أن عادت مرة أخرى إلى حظيرتها عام ١٥٦٨م.

تحرّك الأسطول العثماني من عدن، ووصل إلى سواحل الهند بعد ذلك بعد ١٩ يومًا، إذ كانت سفن الأسطول قد أُعدّت وفق ظروف البحر المتوسط المناخية، بحيث كانت السفن المجدفية تشكّل الغالبية العظمى من سفن الأسطول أكثر من السفن الشراعية. ولقد عانى بحّارة الأسطول العثماني كثيرًا بسبب الرياح الموسمية التي لم يكونوا معتادين عليها. وهاجم الأسطول العثماني في البداية قلعتي "جوكلا (*Gokala*)" و"كات (*Kat*)" في الهند، واستولى عليهما. ثم تحرّك صوب مدينة "ديو". وفي تلك الأثناء، كان "محمود شاه" يجلس على عرش "جوجرات (*Gücerat*)". ولم يكن هذا الشخص يكنّ مشاعر مناصرة

---

(٧٨) الدولة الطاهرية: دولت ورثت مناطق نفوذ الدولة الرسولية في اليمن، وهي معظم أراضي اليمن باستثناء مناطق الجبال الشمالية التي تنافس عليها الأئمة الزيديون فيما بين عامي ١٤٥١ - ١٥١٧. (المترجم)

(٧٩) جزيرة كمران: تقع جنوب البحر الأحمر على مسافة ٦ كيلومترات قبالة السواحل الغربية لليمن. (المترجم)

للعثمانييـن لتحالفـه سـرًا مع البرتغالييـن ضدهم. فكانت تصرفاتـه تلك تتضاد مـع طلبات المسـاعدة التي تقدم بها سـلفه "بَاحَادِرْ (*Bahadır*)" من العثمانيين. ذلك لأن سـليمان بَاشَـا إنما وصل إلى مدينة "ديو" بناءً على طلبٍ بالمسـاعدة تلقّـاه من "باهادر شـاه" الـذي قُتل وهو يتولّـى حكم مدينة "جوجـرات". وكان البرتغاليـون يحكمـون مدينة "ديو"، إذ كانت تعتبر من أقوى حصونهم في الهند. أنزل سليمان بَاشَا جنوده إلى سواحل المدينة في أوائل شهر أيلول/سبتمبر، وبدأ في حصارها. وكان يأمل في أن يتلقّى دعمًا من السكان المحليين لفتح المدينة، ويعتقد أن بإمكانه الاسـتيلاء على القلعة بسـهولة ويُسرٍ بفضل مساعدتهم. لكن الوضـع لـم يكن كما كان يتوقّـع:

ضيّـق سـليمانْ بَاشَـا الخنـاق علـى مدينـة "ديـو" مـن البـر والبحـر، وبدأ فـي قصفهـا بالمدافـع. وكان يدافـع عن المدينة قائدٌ برتغالي يُدعى "أنطونيو دي سـيلفيرا (*Antonio de Sylveira*)". وخلال فترة الحصار التي اسـتمرت لعشرين يومًـا، بـدأت حصـون قلعة "ديو" فـي التهـدّم أمام قذائـف المدافـع العثمانية، إلا أن المدافعيـن عـن المدينة اسـتماتوا مـن أجل منـع العثمانييـن من دخولها. وبعـد طـول قتال عنيـف، أدرك الجنـود البرتغاليـون المدافعون عـن القلعة من الخارج أنهم لن يسـتطيعوا الصمود أكثر في وجه العثمانيين، فآثروا الانسـحاب إلى داخل القلعة، وفي تلك الأثناء شاهدوا سليمان بَاشَا وهو ينقل جنوده مسرعًا إلـى سـفنه، ويبحر بهم بعـد أن تركوا حتـى مدافعهم على الشـاطئ. ولقد أقدم سـليمانْ بَاشَـا على هـذه الخطوة بعدما امتنـع "محمود شـاه" -الـذي كان يفكّر فـي القضـاء على أمير عدن- عن إرسـال الطعام وسـائر المسـتلزمات الأخرى التي طلبها منه العثمانيون، هذا بالإضافة إلى أن سـليمان بَاشَـا علم أن الأسطول البرتغالـي فـي طريقـه نحو المدينـة، ففضّل الانسـحاب بجنوده وفـكّ الحصار عنها. ويمكننا أن نسـرد في هذا الصدد خدعة أخرى قام بها "محمود شـاه" ضد العثمانييـن مفادهـا: أنه لـم يكن ثمة أسـطول برتغالي في طريقه نحو مدينة "ديو" لنجدتها من أيدي العثمانيين؛ إذ أقدم حاكم جوجارات "محمود شاه" على تمرير رسـالة مزيّفة عبر بعض الجواسـيس إلى سـليمان بَاشَـا يتحدّث فيها عن قدوم

الأسطول البرتغالي، وقد وصلت هذه الرسالة سليمان بَاشَا؛ فسلّم -أي سليمان بَاشَا- المدافع التي لم يستطع شحنها على متن سفن أسطوله إلى "مصطفى بَكْ" أحد رجال "الرئيس سلمان"، و"خوجة سفر" القادم من الهند والذي نُصّب واليا ملقبا بلقب "خُدَاوَنْد (*Hüdavend*)" التي تعني السيّد. وبينما كان الأسطول العثماني في طريقه للعودة، مرّ بميناء مدينة "الشحر (*Şihr*)" المطلة على خليج عَدَن جنوب اليمن. وقد أعلن حاكم المدينة اعترافه بالحكم العثماني على المدينة. ونفهم من ذلك أن سليمان بَاشَا رغب في تنظيم الأوضاع السائدة في اليمن بينما كان عائدًا من غزوه للهند.

لقد اعترفت اليمن، وبالأخص منطقة "زبيد (*Zebid*)" بالحكم العثماني فيها عقب فتح مصر، وقُرئت الخطبة باسم السلطان العثماني. وعقب وفاة الحاكم "برسباي" الذي اعترف بالسيادة العثمانية، تولّى الحكم على منطقة "زبيد" شخصٌ يُدعى "حسين بَكْ الشركسي". وكان "إِسْكَنْدَرْ بَكْ" الذي سيطر على هذه المنطقة إبّان وفاة السلطان سليم الأول، قد أعلن عن خروجه عن السيادة العثمانية. لكن العثمانيين لم يغزوا منطقة حكمه لردعه، بل قُتل بعدها بفترة على يد "ناهودا (*Nâhuda*) أحمد". وفي الوقت الذي وصل فيه سليمان بَاشَا إلى مدينة "المخا"، كان "ناهودا أحمد" يحكم منطقة زبيد. وما إن وصل سليمان بَاشَا إلى سواحل "المخا"، أرسل دعوة إلى "ناهودا أحمد" لزيارته في سفينته، إلا أن هذا الأخير لم يستجب لدعوته. وعليه، آثر سليمان بَاشَا معاملته برفق ولين، وأرسل إليه حاجبه "سليمان أغا". وكان "سليمان أغا" يحمل معه راية وشهادة بالإمارة لمنحهما إلى "ناهودا أحمد". ورافق "سليمان أغا" حشد كبير من الرجال الذين كان من بينهم بعض الحُرّاس الذين أُمروا بقتل "ناهودا أحمد" في حال عصيانه للأوامر. لكن "ناهودا أحمد" تصرّف حيالهم بمكرٍ شديد، ورفض دعوة سليمان بَاشَا، إلا أنه تظاهر بقبول الأوامر العثمانية. حتى إن هذا الوفد أبرم معه معاهدة لسداد الضرائب بشكل سنوي إلى الدولة العثمانية. وفيما كان "سليمان أغا" في طريق عودته، أبلغه "ناهودا (*Nâhuda*) أحمد" أنه عازمٌ على نقض الاتفاق المبرم بينهما، والاستيلاء على عدن بمجرد

مغادرة سـليمان بَاشَـا لليمن، مشدّدًا على أنه لن يتنازل عن المناطق التي انتزعها بالسـيف إلا بالسـيف، لا بإبرام الاتفاقيات والمعاهدات. وبناءً على هذه الأنباء، توجّه سـليمان بَاشَـا إلى جزيـرة "كمـران (*Kameran*)"، وكلّف جنـوده بتجهيز عربـات المدافـع. ثـم بعد ذلك أنـزل عددًا من جنـوده في ميناء مدينة "سـالف (*Salif*)". وانضـم حاكـم تلـك المنطقة "كاشـف سـنان" إلى الجيـش العثماني، وزوّدهم بالحيوانات التي كانوا بحاجة إليها لإتمام عملية الهجوم. وهمّ الجيش العثمانـي بمنازلـة "ناهودا أحمد". وقد اضطر هذا الأخير للانسـحاب إلى مدينة زبيد بعدما انقلب عليه أحد قادته ويُدعى "ولي بَكْ". وفي الواقـع، كان سليمان بَاشَـا قد أسـر قسـمًا لا بأس به من جنوده، مما أصاب جيش "ناهودا" بالضعف مـع مرور الوقت. وعليه، أذعن "ناهودا" لعرض سليمان بَاشَا بالاستسلام وتقديم فروض السـمـع والطاعة في ظل شـروط مناسـبة له. وما إن دخل سـليمان بَاشَا إلى مدينة زبيد بهذه السـهولة، أمر بإعدام "ناهودا أحمد" على الفور. وعيّن أمير غزّة مصطفى نجل "بِيِقْلِي محمد بَاشَا" حاكمًا على منطقة زبيد. ثم انتقل سليمان بَاشَـا إلـى مكة المكرمة، ومنها إلى مصر. واسـتُدعي بعدها إلـى عاصمة الدولة العثمانيـة إسـطنبول، وانضم لزمرة وزراء الديـوان الهُمايوني الذي يعتبر مجلس شورى الدولة العثمانية.

إن غـزوة العثمانييـن لسـواحل الهنـد لـم تعـد عليهـم بالفائدة التـي كانوا يرجونها، على الرغم من بثّها للرعب في نفوس البرتغاليين. لكن سيطرتهم على قواعد مهمة في اليمن مثل عدن وزبيد مكّنتهم من بسـط سـيطرتهم على الطرق التجاريـة المـارّة في منطقة جنوب غرب آسـيا، وانتزاع هذه السـيطرة من أيدي البرتغاليـيـن. هـذا إلى جانب أن الأسـطول العثماني اسـتطاع خـلال غزوة الهند الاسـتيلاء علـى بعض القلاع الواقعة جنوب مصر فـي المنطقة التي أطلق عليها مؤلفو كتب التاريخ العثماني اسـم "أرض الحبشـة"، إذ عيّن سليمان بَاشَا حاكمًا على هذه المنطقة شـخصًا يُسـمى "أوزدمير بَكْ". واستطاع "أوزدمير بَكْ" انتزاع قـلاع "إبريـم (*İbrim*)" و"دير (*Derr*)" و"سـاي (*Say*)" من أيدي حكومة "فونـج (*Funç*)"، وبسط نفوذه على منطقة "سيفاكين". وبهذه الطريقة، بدأت حلقة جديدة

من الصراع بين العثمانيين والبرتغاليين للسيطرة على تجارة الشرق، بعدما سيطر العثمانيـون علـى كافة المناطق الواقعـة على ضفتي البحـر الأحمر حتى مضيق "بـاب المندب" جنوبًا، إذا ما اسـتثنينا المناطق الخاضعة أصلًا لمملكة الحبشـة التي صار للدولة العثمانية حدود معها.